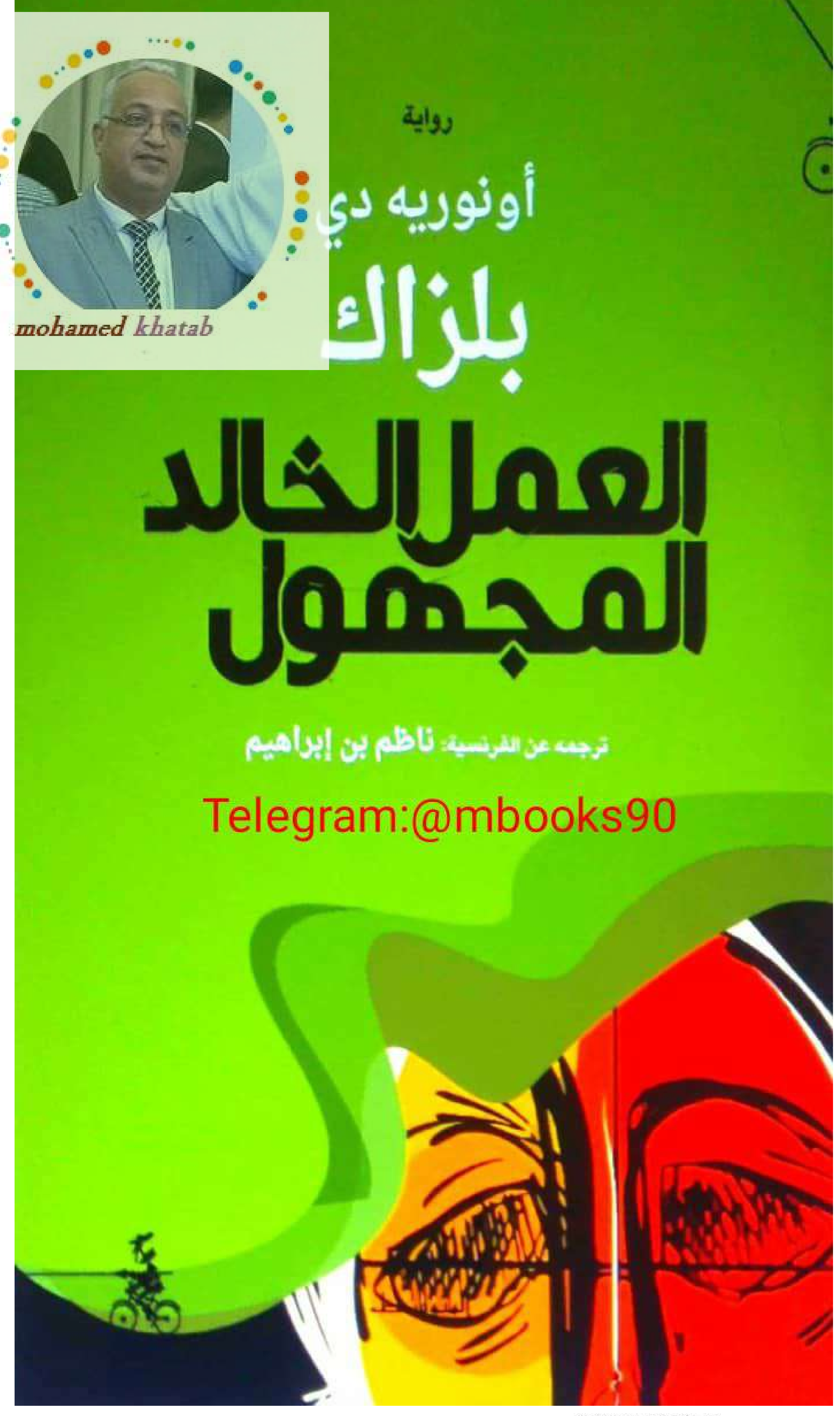

mohamed khatab
رواية
أونوريه دي
بلزاك
العمل الخالد
المجهول
ترجمه عن الفرنسية: ناظم بن إبراهيم
Telegram:@mbooks90

كلمة المترجم

العملُ الخالدُ المجهولُ

ذاك الذي يتحدَّث عنهُ الجميع، دون أن يعرفَهُ أحد

mohamed khatab

بداية، من عنوان هذا العمل الروائيّ، سيجدُ القارئُ نفسه أمام مفارقة غرائبيَّة، فالأعمال الخالدة، كما هو معروف، هي تلك الأعمال الشهيرة في الأدب والنَّحت والرسم والسينما ومختلف صنوف الفنون. بل إن العمل الخالد، في بعض السياقات، يُعرَّف بوصفه «علامة فارقة» في تاريخ الفنّ الذي ينتمي إليه، ويتحوَّل صاحبه، بمقتضاه، إلى «مُعلِّم» في مجاله. إنهُ الخلاصة المُكثَّفة لـ «فائض القيمة الإبداعيِّ» الذي يُحقِّقه فنَّان ما، وهو، بهذا المعنى، موضوعٌ للاحتفاء والاهتمام الواسع، على نحو لا يمكن أن يكون فيه «مجهولاً».

ربَّما سيقترحُ علينا «بلزاك» معالجةً ما لهذه المفارقة، ولكنَّ هذا لن ينفيَ أنها ستظلُّ قائمة في ذهن مَنْ يريد معرفة هذا المجهول، ومُصافحته، خاصَّة عندما يتعلَّقُ الأمرُ بالفنِّ التشكيليِّ وتاريخه المجيد في الثقافة الأوروبيَّة. فهل نحنُ أمام رواية تاريخيَّة، ستنفض الغبار عن لوحة لم ينتبه إليها تاريخ الفنّ أم إننا أمام تخييل روائيّ محض، ولعبة سرديَّة، سيوقِعُنا بلزاك في شِرَاكِها؟ لا يمكننا أن نبتَّ في ذلك، غير

أن الثابت هو أن التاريخيَّ والتخييليَّ في هذه الرواية متقاطعان. وإذا كان التاريخيُّ مُرتبطاً باختيار شخصيَّات حقيقيَّة، وُجدت في الواقع، وفي حِقْبَة زمنيَّة شهدتْ فيها الفنون تحوُّلات كثيرة، فإن التخييليَّ مُتعلِّقٌ بموضوع الرواية في حَدِّ ذاته - الفنِّ التشكيليِّ - بِعَدِّهِ موضوعاً عجائبيّاً، لا فقط لطبيعته الفنيَّة المنفلتة، وإنما، أيضاً، لطبيعة الرسَّامين أنفسهم، فكلُّ رسَّام أو فنَّان، على وجه العموم، هو «مشروع مجنون»، أو في أفضل الأحوال، هو شخص يمتلك رؤية مُغايِرَة للعالَم والأشياء، وهو، بهذا المعنى، «مُحايِث للواقع» أو على الأقلِّ، لا يتمثَّله على نحو «وَضْعَانِيّ».

داخل هذا التنازُع بين التاريخيِّ (الواقعيِّ / العاديِّ / المعقول) والتخييليِّ (المفارق / العجائبيِّ / اللامعقول)، يتفرَّعُ المجهول في هذه الرواية إلى محاور مختلفة، يمكن أن نُجملَها في ثلاثة محاور أساسيَّة:

أوَّلاً: المجهول بوصفه موضوعَ الخطاب: ف «العمل الخالد» الذي ينكشف لنا، من خلال السرد البلزاكيِّ شيئاً فشيئاً، غير موجود خارج الخطاب، بل إنه غير مُتحقَّق حتَّى في زمن السرد نفسه، ولا يحضر إلَّا بِعَدِّهِ «موضوع الرغبة» الذي يتحدَّث عنه الرسَّام فرينهوفر، ويرغبُ كلٌّ مِن بوسان وبوربوس في معرفته، وهو ما جعلهُ يحضر بِعَدِّهِ مُحفِّزاً للنقاش الفلسفيِّ الذي سيدور بين الشخصيَّات، لا

موضوع النقاش في حَدِّ ذاته.

ثانياً: المجهول بوصفه موضوع بحث جماليّ مزدوج: بحث فرينهوفر عن لوحته «المستحيلة» المنشودة، وهو الذي في نهاية تجربته الإبداعيَّة، وبحث بوسان عن المعرفة الجماليَّة ورغبته في رؤية هذه اللوحة حتّى تكون بمثابة النموذج الذي يُقيِّم من خلاله مهاراته الإبداعيَّة، وهو الذي في بداية تجربته.

ثالثاً: المجهول بوصفه موضوعاً للحُبّ: ويظهرُ ذلك، من ناحية، في تعلّق فرينهوفر الكبير بهذه اللوحة حتّى إنه عَدَّها «زوجته» التي لا يريد لأحد أن يراها أو يَخدِشَ حياءَها، ومن ناحية أخرى، في تمزّق بوسان بين عِشْقه لحبيبته جيلات ورغبته الفنيَّة في إنجاز هذا العمل المجهول، من خلال اقتراحه على فرينهوفر أن يرسم حبيبته.

في إطار هذه المحاور الثلاث، تقيم هذه الرواية في المسافة الفاصلة بين ما يتخيَّلهُ المبدع وما يُحقِّقه في عمله الفنِّيّ الذي يظلُّ غير مُتحقَّق على الشاكلة التي تخيَّله بها، والذي قد يعني اكتماله قتْل جانبه البشريّ المنازع للأُلوهة في قدرتها على الخلْق. وبينما ينكشف المجهول للقارئ شيئاً فشيئاً، تحوَّل الرواية إلى سؤال ثقافيّ عن ماهيَّة الفنِّ ومبدأ المحاكاة وخصوصيَّة لحظات المُكاشَفَة الإبداعيَّة، على نحو يجعل منها لا فقط شهادة عن تحوُّلات الفنِّ الأوروبِيِّ في القرن السابع

عشر، بل إبداعاً لهذه التحوُّلات أيضاً، وصياغة لها، بطريقة تتحوَّل معها الكلمات إلى ألوان، والألوان إلى أفكار، والأفكار إلى أسئلة وجودية، تعيد الاعتبار إلى موقع الإبداع الفنّيّ من الوجود الإنسانيّ.

عملُ خالدٌ مجهول دفع بيكاسو سنة 1931 إلى اكتراء بيت في الشارع الذي تدور فيه أحداث هذه القصَّة في باريس، حيث سيقيمُ في أثناء الحرب العالميَّة الثانية، وحيث سيُبدِعُ رائعتهُ الفنِّيَّة: غارنيكا. وقبل ذلك بأكثر من ستَّة عقود، كتب كارل ماركس، وهو يستعدُّ لإصدار عمله الخالد «رأس المال»، إلى صديقه فريديريك إنجلز رسالة بتاريخ 25 فبراير 1867 يقول له فيها: «أنصحكَ بقراءة العمل الخالد المجهول لبلزاك .. أظنُّ أنني اقترفتُ شيئاً مشابهاً .. لن يكتمل أبداً».

- I -

جيليت

في صباحٍ مِن صَباحات ديسمبر الكسيحةِ أواخرَ عام 1612، تجوَّلَ شابٌّ في غاية الأناقةِ أمام أحد منازل شارع كبار القدّيسين في باريس. وبعدَ أن راوحَ مكانَهُ طويلاً بتردُّدِ مُحِبّ، لا يجرؤ على تقديمِ نفسِهِ إلى عشيقتِهِ الأولى مهما بدت لهُ سهلةَ المنالِ، انتهى به الأمرُ إلى تجاوُزِ عتبةِ البيتِ، ليسألَ عمَّا إذا كان الأستاذُ فرونسْوا بوربوس هناك. وبناءً على الردِّ الإيجابيّ لعجوزٍ انشغلتْ بتنظيف إحدى الغُرفِ السُّفليَّة، اتَّجهَ الشَّابُّ إلى السُّلَّم، ثمَّ صعدهُ بخطوات بطيئة متوقّفاً بين الفينةِ والأخرى، قلقاً كما لو كان أحدَ غلمانِ العُصُورِ الغابرةِ الخائفين من الطريقةِ التي سيستقبلُهم بها الملكُ في بلاطِهِ.

عندما وَصَلَ إلى نهاية السُّلَّم اللَّولبيّ، ظلَّ واقفاً لوَهلةٍ على المنبسطِ المخصَّصِ للاستراحةِ غير متأكّد ممَّا إذا كان سيطرقُ المقرعةَ الغريبةَ التي تُرصّعُ بابَ الورشةِ، حيثُ يعملُ، بلا شكّ، الرجلُ الذي كان رسَّامَ هنري الرابع قبل أنْ يتمَّ الاستغناءُ عن خدماتِهِ بعد أنْ فضَّلتْ صاحبةُ الجلالةِ ماري دي ميديسيس بيْار روبانس عليه.

كان الشَّابُّ يشعرُ بذاك الإحساسِ العميقِ الذي يهزُّ قُلُوبَ كبار

المُبدعين عندما يقتربون في أوجِ شبابِهم وحُبِّهم للفنِّ من رجلٍ عبقريٍّ أو من واحدةٍ من التُّحفِ الفنِّيةِ الخالدة.

ثمَّة من بينِ المشاعرِ الإنسانيةِ كلِّها زهرةٌ فتيَّةٌ، يُفتِّحها في دواخلنا ذاك الحماسُ النبيلُ الذي نشعرُ به في شبابِنا، والذي يتضاءلُ شيئاً فشيئاً حتَّى تستحيلَ السعادةُ مجرَّدَ ذكرى، ويستحيلَ المجدُ مجرَّدَ وَهْم. ومن بين هذه المشاعرِ الهشَّة، لا شيءَ يشبهُ الحُبَّ مثلَما يشبهُهُ شغفُ الفنَّان الشَّابِّ بفنِّهِ وهو يستهلُّ رحلةَ العذابِ اللذيذِ التي تنتظرُهُ مواجِهاً قَدَرَهُ، قَدَرَ المجدِ والشؤمِ والألم؛ وهو شغفٌ تختلطُ فيه الجرأةُ بالخجلِ والقناعاتِ الغامضةِ والخيباتِ المتتاليةِ التي لا مهربَ منها.

إن أولئك الذين فاتَهم خوضُ هذه التجربةِ أيَّامَ شبابِهم وفقْرِهم وبدايةِ بروزِ عبقريَّتِهم، ولم ترتعدْ فرائصُهُم وهم يقدِّمون أنفسَهم إلى أحدِ المعلِّمين الكبار، سيفقدُون في قلوبِهم وتراً، لن يعزفَ عليه أحدٌ، وستكونُ أعمالُهم خاويةً من أيِّ شُعورٍ، وخاليةً من تلك اللَّمسةِ الإبداعيةِ التي لم يتمكَّن أحدٌ من تعريفِها، وغير قادرةٍ على التعبيرِ عن أيِّ شيءٍ من الشِّعْرِ أو الدهشة. وإذا وُجِدَ بعض المتبجِّحين المغرورين الذين يثقون مبكِّراً جدّاً بمستقبلِهم الإبداعيِّ، فلن يكونوا مبدعين وأصحابَ مواهبَ إلَّا بالنسبةِ إلى الأغبياءِ والحمقى. ومن هذه الزاويةِ، بدا الشَّابُّ المجهولُ موهوباً حقّاً، خاصَّةً إذا أمكنَ قياسُ

هذه الموهبةِ بذاك الخجلِ العفويّ وذاك الحياءِ غيرِ المفهومِ الذي يَعرِفُ العبقريُّون الموعودون بالمجدِ كيف يتخلَّصون منه عندَ ممارسةِ فنِّهم مثلما تتخلَّصُ النساءُ الجميلاتُ منه عندَ تغنُّجهنَّ لممارسةِ الحُبّ. إن التَّعودُ على النجاح يُقلِّلُ من شكِّ الفنَّان في مقدرتِه الإبداعية، وربَّما ليس التواضع شيئاً آخر سوى عدمِ ثقةِ الفنَّانِ في هذه المقدرة.

غارقاً في البؤسِ ومُتفاجئاً بذُهُولِه في تلك اللحظةِ، لم يستطع المريدُ المسكينُ تجاوُزَ عتبةِ ورشةِ الرَّسّامِ الذي سنبقى مَدينين له بلوحةِ هنري الرابع الرائعةِ بعد أن أبدعَها دون أيِّ مساعدةٍ خارقةٍ من الصُّدفة.

وبينما هو كذلك، صَعِدَ رجلٌ عجوزٌ السُّلَّم. خمَّن الشَّابُّ، بناءً على غرابة ملبسِه وروعةِ الياقةِ الحريريَّة التي يضعُها على كتفَيْه والاتِّزان الكبيرِ في مشيتِه، أنَّ هذا الزائرَ لا يمكنُ أن يكونَ إلّا مساعدَ الرَّسّام أو صديقَهُ، وعندما اقتربَ منهُ تراجعَ إلى الوراءِ، ليفسحَ له المجالَ، ثمَّ طَفِقَ يتفرَّسُ في هيئتِه بفُضُولٍ، علَّه يجدُ فيها ما يوجدُ في هيئةِ الفنَّانين أو على الأقلِّ في ذاك النوعِ من الناسِ الخدومين المحبِّين للفُنُون، غير أنَّهُ لم يجدْ في ملامحِه غيرَ شيءٍ شيطانيّ، لا يستطيعُ الفنَّانون تجاهلَهُ أو مقاومَتَهُ. تخيَّلوا هذا الوجه. رأسٌ أصلعُ بجبينٍ ناتئٍ مُحدَّبٍ، يسقطُ على أنفٍ صغيرٍ أفطسَ مثل أنفِ رابلي أو سقراط، فمٌ واسعٌ متجعِّدٌ، وذقنٌ صغيرٌ حادٌّ، تكسوه لحيةٌ رماديةٌ مدبَّبةٌ، بؤبُؤان من الأخضرِ البَحْرِيّ، لوَّثَ الزمنُ صفاءَهُما دون أن يحجبَ تطوافَهما

في أبيضِ العينَيْن الصَّدَفيّ ما يمكن أن تُلقياهُ من نظرات جذّابةٍ في لحظاتِ الغضبِ أو الحماسِ الشديد. وجهٌ شاحبٌ شحوبَ مَنْ بلغَ من الكِبر عتيّاً، وقد أنهكتْهُ الأفكارُ التي تأكلُ من الروحِ والجسدِ. حاجبان بالكاد ترى لهما أثراً في تقويسةِ العينَيْنِ اللّتَيْنِ ضيَّعَ الدهرُ رُمُوشَهُما.

ضعوا هذا الرأسَ فوقَ جسدٍ نحيفٍ متضائلٍ، وأحيطوهُ بياقةٍ ناصعةِ البياضِ، ومزركشةٍ مثل ملعقةِ سمكٍ فضّيَّةٍ عتيقةٍ. أضيفُوا فوقَ صِداره الأسودِ سلسلةً ذهبيَّةً ثقيلةً، وستحصلون على صورةٍ تقريبيةٍ صغيرةٍ لهذه الشَّخصيَّةِ العجيبةِ التي أضفى عليها ضُمُورُ الإضاءةِ مزيداً من الغرابةِ والبهاء. واحدةٌ من لوحات رامبرانت تكسرُ إطارَها وتجوَّلُ خارجَهُ في صمتٍ متداعيةٍ في جوِ الظلمةِ الذي تفرد به هذا الرَّسَّامُ الكبير. رمقَ العجوزُ الشَّابَّ بنظرةِ حكيمٍ ثاقبة. طرَقَ البابَ ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ قالَ لرجلٍ واهنٍ في الأربعينَ من عُمُرِهِ تقريباً، هَمَّ بفَتْحِ الباب:

- صباح الخير، أستاذ.

انحنى بوربوس احتراماً، ثمَّ فَسَحَ المجالَ للشَّابِّ، ليدخلَ معتقداً أنّهُ برفقةِ العجوز، وعندما رأى دهشتَهُ أمامَ السِّحْرِ الذي يشعرُ به الرَّسَّامون الجُدُدُ بدُخُولهم أوَّل ورشةٍ في حياتِهم ومصالحتِهم أوَّلَ

موادِ الإبداعِ الفنيِّ، ارتاحَ لأمرِهِ أكثر. كان ضوءُ النهارِ يتسرَّبُ من نافذةٍ مفتوحةٍ في السقفِ القرميْديِّ، لينيرَ ورشةَ الأستاذ بوربوس، وإذ تكثَّفَ باتِّجاه المسندِ الخشبيِّ، حيثُ قماشةُ الرسمِ التي لم يكنْ فيها سوى ثلاثةٍ أو أربعةِ خُطُوطٍ بيضاءَ، لم يكن الضوءُ كافياً لإنارةِ زوايا الغرفةِ الرحبةِ الغارقةِ في العتْمةِ، غير أنّ ذلك لم يمنعْ بعضَ خُيُوطِ الشمسِ الطائشةِ من أن تعكسَ وسطَ العتْمةِ المائلةِ إلى الحمرةِ لمعانَ درعِ فارسٍ فضِّيٍّ معلَّقٍ على الحائطِ مثلما لم يمنعْ شعاعاً مفاجِئاً من أن يحدَّ حافَّةَ الزخارفِ المنحوتةِ والملمَّعةِ بعنايةٍ لخزانةٍ عتيقةٍ مليئةٍ بالأطباقِ اللَّافتةِ للانتباه، ولا خُيُوطَ الذهبِ التي طرَّزتْ قماشَ الستائرِ الباليةِ من أن تُشَعَّ منعكسةً على نسيجِها الحريريِّ، وقد فسدتْ طيَّاتُها، وتُرِكَت مثل مسودَّةٍ قديمة. تماثيلُ من الجصِّ تملأُ أرجاءَ الغرفة، نُتَفٌ من الآلهةِ القديمةِ تزدحمُ في المناضدِ والرُّفُوف، وقد صقلتْها السُّنُونُ الطويلةُ التي مرّتْ عليها، كما لو كانت قُبَلاً دافئة، مسوَّداتٌ لا تُعدُّ، ورُسُوماتٌ بالفحمِ والحبرِ والطباشيرِ الحمراءِ تُغطِّي الجدرانَ حتَّى السَّقف، عُلَبٌ للألوانِ، وقواريرُ للزيتِ والبنزين، وسلالمُ خشبيةٌ صغيرةٌ تجثمُ على أرضيةِ الغرفةِ غير تاركةٍ من مساحتِها سوى ممرٍّ ضيِّقٍ للوُصُولِ إلى دائرةِ الضوءِ المنبثقِ من النَّافذة، والمشعِّ مباشرةً على وجهِ بوربوس الشَّاحبِ، وصلعةِ زائرِه العاجيَّة. وعلى الرّغم من استغراقِهِ في التَّفرُّسِ في تفاصيلِ الغرفةِ بُرْهَةً، سرعان ما لم يلفتْ انتباهَ

الشَّابِّ شيءٌ آخرُ غير لوحةٍ نالتْ ما نالتْ من الشهرة، على الرّغم من الاضطراباتِ السِّياسيَّة والثوراتِ الدِّينيَّة وقتها، وصارت مزارَ بعضِ العُنَّدِ الذين ندينُ لهم بالحفاظِ على النِّيرانِ المقدَّسةِ في الأيَّامِ السَّيِّئة.

كانت لوحةً جميلةً للقدِّيسةِ مريم المصريَّة، وهي تعرضُ مفاتنَها (1)، وكانت من التُّحفِ الفنِّيَّةِ المهداةِ إلى ماري دي ميديسيس قبلَ أن تبيعَها في أيَّام بؤسِها.

- تُعجبني قدِّيستُكَ، قال العجوز لبوربوس، وبإمكاني أن أدفعَ لكَ عشرة أتراسٍ ذهبيَّة فوقَ السِّعرِ الذي قدَّمتْهُ لكَ الملكة. لكنْ، مَن سيُفكِّر في إفسادِ أمرٍ مشابهٍ عليها؟ إنَّها لفكرةٌ شيطانيَّة!

- هل تجدُها جيِّدة؟

- ها! ها! حَمْحَمَ العجوز. جيِّدة؟ ... نعم ولا. صحيحٌ أنّ امرأتَكَ الجميلةَ ليست مرسومةً على نحو سيِّئ، ولكنْ، تنقصُها الحياة. يا لكم من أوغادٍ، أيُّها الرَّسَّامون! تعتقدون أنَّكم تفعلون كلَّ شيءٍ عندما ترسمُون وجهاً ما بشكلٍ صحيحٍ، وتضعون كلَّ شيءٍ في مكانِهِ حسبَ قوانينِكُم الفيزيولوجيَّة، ثمَّ تصبغون هذه الخُطُوطَ بألوانِ لحمِنا البشريِّ المُعَدَّة سلفاً على ألواحِكُم دون أن تُهمِلُوا أن يكونَ أحدُ جوانبِ الوجهِ أعمقَ من الجانبِ المقابل. ولأنَّكم تتفرَّسون، من وقتٍ إلى آخَر، في امرأةٍ عاريةٍ واقفةٍ أمامكُم، تعتقدون أنَّكم استنسختُم الطبيعةَ، وتتخيَّلون

أنّكم رسّامون أفذاذ، يسرقون سرَّ الآلهة ... هيهاتَ! لا يكفي أن تكونَ عليماً بجميع قوانينِ النَّحْو، وأن لا تُخطِئَ في اللُّغة حتَّى تكونَ شاعراً عظيماً! انظُرْ إلى قدّيستِكَ الميّتة، يا بوربوس! انظُرْ! صحيح أنّها تبدو مثيرةً للإعجابِ في الوَهْلَة الأولى، ولكنْ، بمجرَّدِ أن تُلقي عليها نظرةً ثانية، سترى أنّها عالقةٌ في سطح اللَّوحةِ، على نحوٍ لا يُظهِرُ استداراتِ جسمِها. إنّها ظلٌّ باهتٌ لامرأة ذاتِ وجهٍ واحد، مظهرٌ خادعٌ، وصورةٌ لا يمكنُ تحريكها أو النَّظَرُ إليها من زوايا مختلفة. إنَّني لا أرى أيَّ تهويةٍ بين هذه الذِّراع ومساحةِ اللَّوحة، ينقصُها شيءٌ من العمقِ والتفضية. صحيحٌ أنّكَ اهتممتَ بهذه التفضيةِ والتَّدرُّج في الألوان، على نحوٍ يجعلُ كلَّ شيءٍ يبدو جيّداً في العُمُوم، لكنَّني، على الرّغمِ من هذه الجهودِ الجديرةِ بالثَّناء، لم أرَ في لوحتِكَ أيَّ حياةٍ، ولا أشعرُ منها بدفءٍ هذا الجسدِ الجميلِ. بل إنّني لو وضعتُ يدي على هذه الرَّقبةِ باستداراتِها الصَّارمة، لوجدتُها باردةً مثل الرّخام! لا، يا صديقي! إنّني لا أرى أيَّ دمٍ يجري في عُرُوقِها تحتَ هذا الجِلْدِ العاجيّ، كما لا أرى لونَ الوُجُودِ الأرجوانيّ منفجراً في شرايينِها وأَوْردتِها تحتَ صدغِها العنبريِّ وصدرِها الشَّفَّافِ. ثمَّةَ أشياءُ نابضةٌ في لوحتِكَ، وأخرى لا تتحرَّكُ، إنّ الحياةَ والموتَ يتصارعان في كلِّ تفصيلٍ: سترى امرأةً في البدايةِ، وإذا دقَّقتَ النَّظَرَ ستستحيلُ المرأةُ تمثالاً، أمَّا إذا نظرتَ أكثرَ، فسيستحيلُ التمثالُ جثّةً هامدةً. إنّ إبداعَكَ غيرُ

مكتملٍ، لأنّكَ لم تتمكَّنُ من أن تهبَ عملَكَ العزيزَ إلّا جزءاً صغيراً جدّاً من روحِكَ، وبعد أن انطفأتْ شعلةُ بروموثيوس أكثرَ من مرَّةٍ في يَدَيْكَ، لم يلمسْ ذاكَ اللَّهيبُ السَّماويُّ مواضعَ كثيرةً من لوحتِكَ.

- لكنْ، لماذا، أستاذي العزيز؟ قال بوربوس باحترامٍ للعجوزِ بينما ظلَّ الشَّابُّ في مكانِهِ محاوِلاً بصُعُوبةٍ قمعَ رغبتِهِ القويَّةِ في ضربِهِ.

- آه! ها نحنُ، إذنْ. قال العجوزُ. لقد خلطتَ بتردُّدِكَ بين نظامَيْنِ، نظامِ الرَّسمِ ونظامِ اللّونِ، أو لنقلْ بين بُرُودةِ أعصابِ كبارِ الرَّسامين الألمانِ وصرامتِهِم ودقَّتِهِم؛ وحماسِ الرَّسامين الإيطاليّيْن وترَفِهِم الإبداعيّ. لقد أردتَ أن تُقلِّدَ، في آنٍ واحد، هانس هولباين وتيتيان؛ ألبريشت دورر وبول فيرونيز. صحيحٌ أنّه من الرَّائع أن يكونَ لكَ طُمُوحٌ كهذا! لكنْ، ما الذي حصلتَ عليه، في النهاية؟ لم تصلْ إلى سِحْرِ الجفافِ الألمانيّ الصَّارمِ، ولا إلى أُبَّهةِ الألوانِ الإيطاليَّةِ المُخادِعَة. في بعضِ المواضعِ، وكما لو كانتْ سيلاً من البرونزِ المصهورِ في قالبٍ صغيرٍ وَهِنٍ، فجَّرتْ ألوانُ تيتيان الشَّقراءُ الثَّريَّةُ خُطُوطَ ألبريشت دُورر النَّحيلةَ. وفي مواضعَ أخرى، قاومتْ هذه الخُطُوطُ بصُعُوبةٍ، وتمكَّنتْ من احتواءِ فيضِ الفُرشاةِ الفينيسيَّةِ الباذخة. وهذا ما جَعَلَ امرأتَكَ غيرَ مرسومة، على نحوٍ نهائيّ، ولا ملوَّنةً على النَّحْوِ ذاتِهِ أيضاً؛ بل إنّ آثارَ هذا التَّردُّدِ البائسِ باديةٌ في كاملِ أرجاءِ اللَّوحة.

وإذا أنتَ لم تشعرْ بالقوَّةِ الكافيةِ لتصهرَ هاتَيْن الطَّريقَتَيْن المتصارعَتَيْن بنارِ عبقريَّتِكَ، فسيكونُ من الأفضلِ أن تختارَ إحداهُما حتَّى تصلَ إلى الوحدةِ والانسجامِ اللَّذَيْن يُعتبران من أهمِّ شُرُوطِ الحياة. لستَ حقيقيّاً إلَّا في المساحاتِ الدَّاخليَّة، وأمَّا الخُطُوطُ التي تُحوِّطُ بها امرأتَكَ، فهي ضعيفةٌ أمامَ فيضِ ألوانكَ، كما أنّها لا توحي بشيءٍ آخرَ غير نفسِها. ثمَّةَ شيءٌ من الحقيقةِ هنا، قال العجوزُ مشيراً إلى صدرِ القدّيسة. - ثمَّ، هنا، أضافَ وقد استقرَّتْ يدهُ على كتفِها. - لكنْ، هنا، قال عائداً إلى حلقِها، كلُّ شيءٍ خاطئ. ولن أُحلِّلَ شيئاً بعد هذا. سيُحبِطُكَ ذلك كثيراً.

جلس العجوزُ على كرسيٍّ. وَضَعَ رأسَهُ بين يَدَيْه، وظلَّ صامتاً.

- لكنّي .. قالَ له بوربوس، قلَّبتُ رقبتَها جيّداً قبلَ رسمِها، أستاذي؛ لكنْ، من سوءِ حظّنا، ثمَّةَ أشياءُ حقيقيَّةٌ في الطّبيعةِ لا يمكنُ الوُصُولُ إليها أبداً في اللّوحةِ ...

- مهمَّةُ الفنِّ ليست نَسْخَ الطبيعة، بل التعبير عنها! لستَ نسَّاخاً حقيراً، يا بوربوس! أنتَ شاعرٌ! صَرَخَ العجوزُ بعنف مقاطِعاً إيَّاهُ بحركةٍ صارمة. لو كان الأمرُ كذلك، لكان على النَّحَّاتين الاكتفاءُ بقولبةِ النّساءِ على نحوٍ، يُوفّرون به على أنفسِهم أيَّ عناءٍ آخرَ! ها! حسناً؛ حاوِلْ أن تُقولِبَ يدَ حبيبتِكَ، وأن تضعَهَا أمامَكَ. لن تحصلَ

إلَّا على جثَّةٍ مروّعةٍ، لا تشبهُ يدَها في شيء. حينها، ستبحثُ عن إزميلِ الرَّجلِ الذي سيمنحُها الحركةَ والحياةَ دون أن يضطرَّ إلى نسخِها نسخاً تاماً. إنّ مهمّتنا تتلخَّصُ في الوُصُولِ إلى روح الأشياء والكائنات. أشياءُ حقيقيَّةٌ في الطبيعة! هَهْ! هذه الأشياءُ عارضةٌ على الحياةِ، يا صديقي، وليست هي الحياة!

إنّ يداً ما، بما أنّي أخذتُ هذا المثالَ، لا يمكنُ أن تكونَ مجرَّدَ عضوٍ من أعضاءِ الجسدِ. إنّها تتكلَّمُ وتعبِّرُ عن أفكار، يجبُ إدراكُها وإظهارُها في العمل الفنّيّ. ولا يجبُ أن يفصلَ الرَّسامُ ولا الشَّاعرُ ولا النَّحاتُ بين هذه الأشياءِ الحقيقيَّةِ الباديةِ في الطَّبيعةِ وعلَّةِ الوُجُودِ التي تُحرِّكُها، لأنّهما أمران، لا ينفصلان أبداً! هذا هو الرّهانُ الحقيقيّ! ثمَّةَ الكثيرُ من الرَّسامين الذين تمكَّنوا بفطرتِهم من كسبِ الرّهان دون أن تكونَ لهم معرفةٌ كبيرةٌ بسؤالِ الفنّ هذا. إنّكَ ترسمُ امرأةً، ولكنَّكَ لا تراها! ليست هذه هي الطّريقةُ التي يمكنُ للمرءِ من خلالها أن يَلوي عنقَ الطبيعةِ وسرَّها. إنّ يدَكَ، ودون أن تعيَ بذلك، لا تفعلُ شيئاً غيرَ إعادةِ إنتاجِ الأنموذجِ الذي أخذتَهُ عن أستاذِكَ. أنتَ لا تستطيعُ الوُصُولَ إلى العمقِ الذي وراءَ الشّكلِ، ولا تملكُ ما يكفي من الحُبِّ والمثابرةِ للإحاطةِ بانثناءاتِهِ وانفلاتاتِه. إنّ الجمالَ شيءٌ صعبُ المراسِ بعيدُ المنالِ، ولا يمكنُ أن ينقادَ إليكَ بهذه السُّهولة. سيكونُ عليكَ أن تنتظرَهُ لساعاتٍ طويلةٍ، أن تتلصَّصَ عليه، وتتربَّصَ

به، ثمَّ تنقضّ عليه في اللّحظةِ المناسبةِ حتّى تُجبرَهُ على الاستسلامِ لإرادتِكَ. إنّ الشّكلَ هو بروتيوسُ (2) أكثر مراوغةً وخُصُوبةً من بروتيوس الأساطيرِ القديمةِ نفسه، ولا يمكنُ إجبارُهُ على الظُّهورِ على حقيقتِهِ إلّا بعد معاركَ طويلةٍ. أمّا أنتمُ! فترضون بالصُّورة الأولى التي يُبديها لكم، وفي أحسنِ الأحوالِ، قد تصلون إلى الثّانية أو الثّالثة، ما هكذا يفعلُ المحاربون الأشاوس! لأنّ الرَّسامين الحقيقيّين لا يرضون أبداً بما يُقدَّمُ إليهم، ولا يخدعُون بمظهرِهِ الزّائفِ والمُستعارِ، إنّهم يداومون على المثابرةِ، إلى أن تُطاوِعهم الطّبيعةُ، وتخرُجَ من أياديهم في كاملِ عُريِها مقدّمةً سرَّها العجيبَ. هكذا فعَلَ رافاييل، قال العجوزُ نازعاً قلنسُوتَهُ المخمليّةَ السوداءَ تعبيراً عن الاحترامِ الذي ألهمَهُ إيّاهُ ملكُ الفنِّ، وإنّ تفوّقَهُ الكبيرَ متأتٍّ من حساسيّتِهِ المفرطةِ التي تبدو، في حالتِهِ، نازعةً إلى تحطيمِ الشّكلِ في حَدِّ ذاتِهِ. إنّ الشّكلَ في أعمالِهِ، كما هو الحالُ لدينا، هو وسيلةٌ رمزيّةٌ للتعبير عن الأفكارِ والأحاسيسِ وخيالاتِ الشّعْرِ التي لا تنتهي. كلُّ وجهٍ هو عالمٌ بأسرِهِ لديه. وكلُّ لوحةٍ وُلِدَت عندَهُ في لحظةِ إشراقٍ جليلة، وقد صُبِغَتْ بالضّوءِ، وبينما تُنصِتُ الألوانُ إلى صوتِهِ الدّاخليِّ العميقِ، تخرُجُ من يدِهِ الإلهيَّةِ إلى اللّوحةِ ناضحةً بتاريخ حياةٍ بأكملِها، وممتلئةً بمصادرِ التعبيرِ كلِّها.

صحيحٌ أنّكَ تُزيِّنُ نساءَكَ بفساتينَ جميلةٍ من اللّحمِ البشريِّ، وباروكاتٍ رائعةٍ من الشَّعْرِ، ولكنْ، أينَ هو الدَّمُ الذي يستكنهُ السّكينةَ والشَّغفَ، ويُنتجُ تأثيراتٍ مختلفةً على النّاظرِ إلى لوحتِكَ؟ قدّيستُكَ امرأةٌ قمحيّةٌ، يا بوربوس؛ أمَّا هذه، فشقراءُ شاحبةٌ، أيُّها البائسُ! ليست الوُجوهُ التي تُرسمها سوى أشباحٍ ملوّنةٍ باهتةٍ، تعرضُها علينا. أتُسمّي هذا فنّاً تشكيليّاً وإبداعاً؟

أنتمُ تعتقدون أنّكم وصلتمُ إلى تحقيقِ الهدفِ، بمجرَّد أن ترسموا شيئاً يشبهُ امرأةً أكثرَ ممَّا يشبهُ منزلاً، ومتفاخرِين بأنّهُ لم يعد عليكم كتابة currus venustus أو (3) pulcher homo كما كان يفعلُ الرَّسامون الأوائل، تعتقدون أنّكم فنّانون رائعون! ها! ها! لستُم كذلك بعدُ، يا أصدقائي الشُّجعان. سيكون عليكم تذويبُ آلافِ أقلامِ الزّينةِ ورسمُ آلافِ اللَّوحاتِ قبلَ الوُصولِ إلى هذا المستوى. صحيحٌ أنّ أيَّ امرأةٍ تضعُ رأسَهَا على هذا النَّحْو، وتمسكُ بتنُّورتِها بهذه الطّريقةِ. صحيحٌ أيضاً أنّ عينيْها تلمعان وتذوبان في جوِّ الغنجِ المستسلمِ هذا بينما ينطُّ ظلُّ رُمُوشِها الخافقُ فوقَ الوجنتَيْنِ! نعم، هذا هو المطلوبُ، وليس هذا. ما الذي ينقصُ لوحتَكَ، إذاً؟ أكاد أقولُ لا شيء، ولكنَّ هذا اللاّشيء هو كلُّ شيء! لقد قدَّمتَ لنا الحياةَ في ظاهرِها، ولكنَّكَ لم تُعبِّر عن فيضِ مهجتِها، ذاكَ الفيضُ الذي لا أعرفُ

كيف أُسمّيه، والذي ربّما يكونُ الرُّوحَ التي تطفو على السّطح غائمةً، أو لنقلْ في النّهايةِ زهرةَ الحياةِ التي تمكّنَ رافاييل وتيتان من قطفِها. ربّما كان بإمكانكَ الحصُولُ على لوحة ممتازة، لو أعدتَ كلَّ شيءٍ من البدايةِ، ولكنّكَ استسلمتَ بسرعة. ربّما سيُحبُّ العامّةُ هذه اللّوحةَ، ولكنَّ العارفَ الحقيقيَّ سيقفُ أمامَها مكتفِياً بابتسامةٍ ماكرة.

أووف، يا مابوز اللّعين! يا سيِّدي ومولاي! صَرَخَ العجوزُ العجيبُ، أنتَ سارقٌ حقيرٌ! لقد أخذتَ معكَ الحياةَ، وتركتَنا وكلَّ لوحاتِنا بلا روحٍ!

مع ذلك، أضافَ، فإنَّ لوحتَكَ أفضلُ من لوحاتِ ذاكَ الوغدِ روبنز بأكوامِ لحمٍ فلمنديّ مرشوشٍ بأصباغٍ قرمزيّةٍ ووابلٍ من الشّعرِ الأحمرِ المتكدّسِ وضجّةِ ألوانٍ مزعجة. على الأقلّ، أنتَ تملكُ اللّونَ والإحساسَ والرّسمَ، عناصرَ الفنِّ الأساسيّةَ الثّلاثة.

- لكنَّ هذه القدّيسةَ رائعةٌ، يا رجُل! صاحَ الشّابُّ بصوتٍ عالٍ، كما لو استيقظَ من حلُمٍ طويل. إنّني أجدُ في هاتَيْنِ اللّوحَتَيْنِ، لوحةَ القدّيسةِ ولوحةَ البحّارِ، براعةً قد لا يعثرُ عليها المرءُ لدى أكبر الرّسّامين الإيطاليّيْن، ولا أعرفُ رسّاماً واحداً منهم كان قادراً على رسمِ حيَرة بحّار.

- مَنْ يكونُ هذا الغِرُّ؟ سألَ العجوزُ بوربوس، هل هو تابعٌ لكَ؟

- اللعنة! سامحْني على جُرأتي، سيِّدي، أجابَ المريدُ محمرّاً خجلاً. أنا لا أحد. مجرَّدُ رسَّام هاوٍ، وصلتُ منذُ قليلٍ إلى هذه المدينةِ، حيثُ العُلُومُ كلُّها.

- إلى العمل إذاً! قال له بوربوس مقدِّماً له قلماً أحمرَ وورقةً بيضاءَ. وبخفَّةٍ كبيرةٍ، رسمَ الشَّابُّ القدِّيسةَ على الورقة.

- مهلكَ! مهلكَ! صاحَ العجوزُ، واسمكَ؟ كَتَبَ الشَّابُّ اسمَهُ أسفلَ الورقة: نيكولاس بوسان.

- هذا ليس سيِّئاً بالنسبةِ إلى مبتدئ. قال العجوزُ العجيبُ بجُنُونِه المعتادِ. أعتقدُ أنّه بإمكانِنا أن نتحدَّثَ عن الفنِّ أمامَكَ. أنا لا ألومُكَ على إعجابِكَ بقدِّيسة بوربوس. إنّها تُحفةٌ فنِّيَّةٌ حقيقيَّةٌ، بالنسبة إلى الجميع، ووحدَهم المطَّلعُون بعُمقٍ على أسرارِ الفنِّ يستطيعون اكتشافَ ما ينقُصُها. لكنْ، بما أنّكَ جديرٌ بهذا الدَّرْس، وقادرٌ على فهْمِهِ، سأُبيِّنُ لكَ بعضَ الأشياءِ التي تنقصُ هذا العملَ ليكتملَ. وعليكَ أن تنتبهَ جيِّداً، فقد لا تُتاحُ لكَ فرصةٌ مثل هذه للتَّعلُّم أبداً. بوربوس! أين لوحةُ الألوانِ؟ تحرَّكَ بوربوس ليأتيَ بها مع الفُرَشِ. شمَّرَ العجوزُ عن ساعدَيْه بحركةٍ سريعة متشنِّجة، وبينما يُدخلُ إبهامَهُ في ثقب لوحةِ الألوان بيد، كانَ كَمَنْ ينتزعُ يَدَيْ بوربوس باليدِ الأخرى وهو يأخذُ منه حزمةَ الفُرَشِ المختلفةِ التي أتى بها. وبمجرَّدِ أن التفتَ إلى

اللَّوحةِ، تحرَّكَ شاربُهُ المدبَّبُ بتشنُّجٍ مُدمنٍ، وبينما غمَّسَ فُرشاتَهُ في أحدِ الألوانِ، دَمْدَمَ بأسنانٍ مصطكَّة: - هذه ألوانٌ تستحقُّ أن تُرمَى من النّافذةِ هي ومَن أعدَّها! يا لشحوبِها الفظِّ، ويا لزيفِها المثيرِ للسّخطِ! كيف ترسمُ بهذه الأشياء؟!

وبحيويّةٍ محمومة غمَّسَ رأسَ الفُرشاةِ في ألوانٍ مختلفة، وممرِّراً يدَهُ على طيفِها القُزَحِيِّ، كان يبدو أسرعَ من عازفٍ كنسيٍّ، يمرِّرُ أصابعَهُ على لوحةِ مفاتيحِ الأرغنِ الطويلة كلِّها في أنشودةِ عيدِ الفصح.

وَقَفَ بوربوس إلى جانبِ اللّوحةِ بينما ظلَّ بوسان في الجانبِ الآخَرِ، وشردَا معاً في الأفكارِ الأكثرِ قسوة.

- هل ترى، يا بُنَيَّ، قال العجوزُ دون أن يلتفتَ إلى الشّابِّ، هل ترى كيف يمكننُا بثلاثِ أو أربع لمساتٍ من الأزرقِ الشّفّافِ أن نفتحَ الأُفقَ المحيطَ برأسِ هذه القدّيسةِ المسكينة، بعد أن كانت سجينةَ هذا الجوِّ الخانقِ! انظُرْ كيف يُرفرِفُ شَعْرُها الآن، وكيف يتلاعبُ النَّسيمُ بخصلاتِه! لقد كان أشبهَ بقماشٍ مكويٍّ مُعلَّقٍ بالدبابيسِ على اللّوحةِ. ألا تلاحظُ كيف جَعَلَ البريقُ الحريريُّ الذي أضفتُهُ الآن صدرَها لِيّناً ليونةَ شابَّةٍ بكاملِ مشمشِها، وكيف ألهبَ خليطُ الأحمرِ والأمغرِ المتوهِّجِ بردَ الظّلالِ الرَّماديَّةِ المحيطةِ بعُرُوقِها التي تجمَّدتْ بدلَ أن تنفجرَ الحياةُ فيها؟! انتبِهْ، يا بُنَيَّ، انتبه، فما أقدِّمُهُ لكَ هنا لا

يستطيعُ أيُّ أستاذٍ تعليمَكَ إيّاه. وحدَهُ مابوز كان يملكُ سرَّ بَثِّ الحياةِ في لوحاتِهِ؛ ولم يكنْ لمابوز سوى تلميذٍ واحدٍ، هو الذي يقفُ أمامَكَ الآن. وها قد بلغتُ من العُمُرِ عتيّاً دون أن يكونَ لديَّ أيُّ تلميذٍ أزرعُ فيه هذه البذرةَ! وها أنا أُقدِّمُ لكَ هذه اللَّمحاتِ الخاطفةِ واثقاً من أنّكَ تملكُ ما يكفي من الذّكاءِ لتخمينِ بقيَّةِ الأشياءِ.

دون أن يتوقَّفَ عن الحديثِ، كانَ العجوزُ العجيبُ يُعدِّلُ كلَّ أنحاءِ اللَّوحةِ بفُرشاتِهِ: لمستانِ هنا ولمسةٌ هناكَ، ولكنْ، في المكانِ المناسبِ دائماً، كما لو كانَ يرسمُ لوحةً أخرى جديدةً تنضحُ بالحياةِ والضوءِ. كانَ يعملُ بحماسٍ وشَغَفٍ حتّى طَفِقَ العَرَقُ يتصبَّبُ من جبينِهِ الأملسِ. وكانت حركاتُهُ سريعةً ومتشنِّجةً، وغيرَ متأنّيةٍ إلى درجةٍ فكَّرَ فيها الفتى بوسان أنّه ثمَّةَ داخلَ هذه الشخصِ الغريبِ شيطانٌ، يُحرِّكُ يَدَيْهِ، ويجعلُهما فوقَ الإمكاناتِ البشريَّةِ كلِّها. ولم يكنْ مِنْ توهُّجِ عينَيْه الجحيميِّ، وتشنُّجِهِ الذي بدا كما لو كانَ مقاومةً لطبيعتِهِ البشريَّةِ إلّا أن أضفيا على هذه الفكرةِ شيئاً من الحقيقةِ التي لا بدَّ وأن تُؤثِّرَ على أيِّ خيالِ فتيٍّ. قال العجوزُ: - باف، باف، باف! انظُرْ كيفَ يصنعُ الفنُّ، يا بُنيَّ! أيَّتُها اللَّمساتُ الإلهيَّةُ الصغيرةُ، تعالي! اجعليني ألهبُ هذا الرّخامَ الجليديَّ! هيّا، إذاً! هَهْ! هِمْ! هَهْ! قال وهو ينفخُ روحَهُ في أنحاءِ اللّوحةِ التي لاحَظَ فيها خطأً في الحياةِ؛ وبطبقاتٍ خفيفةٍ من الألوانِ، بدَّدَ أيَّ تباينٍ بين التعديلاتِ التي

أجرَاها، وما رَسَمَهُ بوربوس في البدايةِ، وأعادَ إلى اللَّوحةِ وحدَتَها، وإلى القدِّيسةِ لهيبهَا المصريَّ المُشتَهى.

- هل رأيتَ، يا بُنيَّ؟ المهمُّ هو اللّمسةُ الأخيرةُ وحدَها! لقد قامَ بوربوس بمائة لمسة؛ أمَّا أنا، فلم أقمْ إلَّا بلمسةٍ واحدةٍ، ولا أحدَ سينتبهُ أو يهتمَّ بما هو تحتَها! تذكَّرْ هذا الأمرَ دائماً!

توقَّفَ هذا الشيطانُ أخيراً، وبمجرَّد أن التفتَ إلى بوربوس وبوسان اللَّذيْن أخرسَهُما الإعجابُ، قال لهما: - صحيحٌ أنَّ هذه اللَّوحةَ لا تُضاهي إلى حَدِّ الآن «جميلتي المغناج»(4)، لكنْ، بإمكَانِنا أن نضعَ اسمَهَا أسفلَ لوحةٍ مُشابهة. نعم، سأُوقِّعُها، أضافَ وهو ينهضُ ليأخذَ مرآةً، ينظرُ منها إليها. - أمَّا الآن، فلنتناول الغداءَ، قال. لنذهب

Telegram:@mbooks90

معاً إلى بيتي. لديَّ بعضُ اللّحمِ المدخن مع شيءٍ من النبيذِ الجيِّد! يا لهُ من نهار! سنتحدَّثُ عن الفنِّ التَّشكيليِّ على الرّغم من رداءةِ عصرنا! هاهاها! نحنُ الأقوياءُ! وها هو شابٌّ جميلٌ، مُربِّتاً على كتفِ نيكولاس بوسان، يملكُ موهبةً حقيقيَّة. وإذ لاحَظَ اهتراءَ المعطفِ الذي يلبسُهُ، أخرجَ من حزامِه محفظةً من الجلْد، وبعد أن قلَّبها، أخذَ منها قطعتَيْن من الذَّهَب، وقدَّمهُما إليه: - سأشتري رسمَكَ، قال.

- خُذْ ما أعطاكَ إيَّاه، قال بوربوس لبوسان وهو يراهُ يرتعدُ ويحمرُّ خجلاً من فرطِ كبرياءِ الفقراءِ الذي لديه. خُذْ، أرجوكَ، إنّهُ يملكُ في

محفظتِهِ ما يُمكنُ أن يفدي به اثنَيْن من المُلُوكِ!

نَزَلَ ثلاثتُهم من ورشةِ بوربوس، ومشوا متحدّثين عن الفُنُونِ، إلى أن وصلوا إلى منزلٍ خشبيٍّ جميلٍ بالقُربِ من جسرِ سان ميشال. تفرّسَ بوسان في البيت مدهوشاً، ولمّا يزلْ تحتَ وطأةِ الافتتانِ بالزّخارفِ والمقرعةِ المنقوشةِ والصُّلبانِ المصقولةِ بعناية، وَجَدَ نفسَهُ فجأةً في غرفة جميلةٍ أمامَ مدفأةٍ ملتهبةٍ إلى جانبِ طاولة مليئة بالأطباقِ الشّهيّة، وبحظٍّ غيرِ مسبوق، رفقةَ فنّانَيْن عظيمَيْن وطيّبَيْن أيّما طيبة.

- يا فتى، قال له بوربوس وهو يراهُ مذهولاً أمامَ إحدى اللّوحاتِ، لا تتأمَّلْ هذه اللّوحةَ كثيراً، وإلّا أصابكَ الإحباطُ.

كانت لوحةُ «آدم» التي رَسَمَهَا مابوز ليخرجَ من السّجنِ الذي وَضَعَهُ فيه دائنُوه لفترةٍ طويلةٍ. وكان فيها بالفعلِ قَدرٌ كبيرٌ من الحياة، بدأ نيكولاس بوسان يفهمُ منه المعنى الحقيقيَّ للعباراتِ الغريبةِ التي قالها العجوزُ في ورشةِ بوربوس. أمّا العجوزُ، فَنَظَرَ إلى اللّوحةِ برضا، ولكنْ، دون حماسٍ، وقال: «لديَّ ما هو أفضلُ منها!»

- فيها شيءٌ من الحياةِ، قال، وقد تفوَّقَ معلّمي المسكينُ في هذه النقطة؛ لكنْ، في العمقِ، مازالَ ينقصُ هذه اللّوحةَ شيءٌ من الحقيقة. صحيحٌ أنّ الرّجلَ الذي رَسَمَهُ حيٌّ، بل إنّهُ يكادُ ينهضُ

ويخرجُ إلينا من اللّوحةِ، لكنَّ الهواءَ الذي نتنفَّسُهُ والسَّماءَ التي نراها والرّيحَ التي نشعرُ بها غيرُ موجودةٍ. ثمَّ، ليس في هذه اللّوحةِ سوى رجلٍ! في حين أنّهُ يجبُ على الرَّجلِ الوحيدِ الذي خَرَجَ مباشرةً من يَدَي الله أن يُعبّرَ عن شيءٍ من الأُلُوهةِ التي تنقصُهُ في هذا العملِ.

وقد قال مابوز هذا الكلامَ بنفسِهِ، وبأسفٍ كبيرٍ في إحدى المناسباتِ التي لم يكن ثملاً فيها.

كان بوسان يُوزِّعُ نَظَرَهُ بفُضولٍ قَلِقٍ بينَ العجوزِ وبوربوس. اقتربَ منهُ كما لو كان يرغبُ في سؤالِهِ عن اسمِ مُضيفِهِ، غير أنّ الرَّسّامَ وَضَعَ يَدَهُ على فمِهِ كَمَنْ يفكّرُ في شيءٍ، سيهمُّ بقولِهِ، فلم يكنْ من الشّابِّ المتطلّـعِ إلى المعرفةِ إلَّا أن واصلَ صمتَهُ على أملِ أن تُمكّنَهُ عاجلاً أم آجلاً أيُّ عبارةٍ في كلامِهِ من تخمينِ اسمِ هذا المضيفِ الذي كانت التُّحفُ الفنّيّةُ العجيبةُ التي تملأُ بيتَهُ إلى جانبِ الاحترامِ الكبيرِ الذي أبداهُ له بوربوس أشياءَ كافيةً لإثبات ثراءِ ثقافتِهِ وحقيقةِ موهبتِهِ.

كان بوسان يتفرّسُ في أرجاءِ الغرفةِ، وبمجرّدِ أن وَقَعَ نظرُهُ على لوحةٍ رائعةٍ لامرأةٍ معلّقةٍ بين الزخارفِ الخشبيّةِ التي غطّتِ الجدارَ، صَرَخَ: - يا لجورجياني العظيم!

- لا! أجابَ العجوزُ، أنتَ ترى واحدةً من خربشاتي الأولى.

- أنتَ إلهٌ! أنا في ضيافةِ ربِّ الرّسمِ إذاً! قال بوسان بسذاجةٍ.

ابتسمَ العجوزُ، على نحوٍ بدا فيه متعوِّداً على هذا النّوعِ من المديحِ منذُ وقتٍ طويلٍ.

- أستاذ فرينهوفر! قال بوربوس، ألن تأتيني بكأسٍ من نبيذِ الرّاين الجيّدِ؟

- بل بكأسَيْن! أجابَ العجوزُ، كأسٍ من أجلِ السعادة التي شعرتُ بها هذا الصباح وأنا أطّلعُ على خطيئتِكَ الجميلة، وأخرى عربوناً لصداقتِنا العظيمة.

- آه! إذا كنتَ في صحّةٍ جيّدة، أردفَ بوربوس، وسمحتَ لي برؤية جميلتِكَ المغناج، ربّما سأرسمُ لوحةً عظيمةً، ضخمةً وعميقةً، ويكونُ حجمُ الأشياءِ فيها مطابِقاً لحجمِها الطّبيعيّ في الواقع.

- أُطلِعُكَ على عملي؟! صرَخَ العجوزُ بتأثُّرٍ كبيرٍ. لا، لا .. يجبُ أن أعملَ عليها أكثر. بالأمسِ مساءً، قال، اعتقدتُ أنّني انتهيتُ منها: عينان حوراوَيْن ولحمٌ حيّ وجدائلُ متحرِّكة. كانت تتنفّسُ! وعلى الرّغم من أنّني وجدتُ الطريقةَ المناسبةَ لأُجسِّدَ على لوحةٍ مسطّحة ملامحَ الطبيعةِ واستداراتَها، إلّا أنّني أدركتُ هذا الصّباحَ، عند طُلُوعِ النّهارِ، الخطأَ الذي اقترفتهُ. إيه! لقد فعلتُ الكثيرَ للوُصولِ إلى هذه النتيجةِ المبهِرة! لقد عاشرتُ طويلاً لوحاتِ كبارِ الرّسّامين،

وحلّلتُ كلَّ طبقاتِ الألوانِ في لوحاتِ تيتيان، ملكِ الأضواءِ الجميلةِ؛ لقد رسمتُ امرأتي، مثلما فعلَ هذا الرّسّامُ العظيم، بأسلوبٍ وضّاءٍ، وبمزيجٍ لونيّ مرنٍ ومُشبَعٍ، لأنّ الظّلالَ ليست سوى حادثٍ عرَضيّ، تذكّرْ هذا جيّداً، يا بُنيّ. بعد ذلك، عدتُ إلى لوحتي، ومستعملاً بعضَ الألوانِ المائيّةِ الخفيفةِ، قلّلتُ شيئاً فشيئاً من المواضعِ الشّفّافةِ فيها، ومن كُنْهِ ألوانِها الباذخةِ نفسِها، أعدتُ إليها ظلالَها القويّةَ، وسوادَها الذّاهبَ إلى أقصاه؛ لأنّ ظلالَ الرّسّامين العاديّين هي من طبيعةٍ أخرى غيرِ طبيعةِ ألوانِهم الأولى، وذلك ما يجعلُها مجرّد عتمةٍ مصطنعةٍ، تقتلُ الأشياءَ التي تحيطُ بها، أو مجرّد أُطرٍ خشبيّةٍ أو نحاسيّةٍ أو أيّ شيءٍ أردتَهُ غير الظلالِ الحقيقيّةِ التي ليست شيئاً آخرَ غير كُنْهِ الشّيءِ الذي تُحيطُ به. إنّ مَنْ يرى هذا النّوعَ المصطنَعَ من الظّلالِ، سيشعرُ أنّ موضوعَ اللّوحةِ سيغرقُ في الظّلمةِ بمجرّد أن يُغيّرَ زاويةَ نظَرِهِ إليه، وأنّ المواضعَ المعتمةَ المحيطةَ به لن تتطهّرَ من سوادِها، ولن تُضيئَهُ أبداً. لقد تجنّبتُ هذا العيبَ الذي سَقَطَ فيه عديدُ الرّسّامين المهمّين، وفي أعمالي سترى البياضَ ساطعاً من أيّ زاويةٍ، وتحتَ أثقلِ ظلٍّ يمكنُ للمرء أن يُحوِّطَ به موضوعَ لوحتِهِ! ولأنّ كمّاً هائلاً من الجَهَلةِ يعتقدون أنّهم فنّانون كبار، بمجرّد أن يرسموا خُطُوطاً صحيحةً وأنيقةً، لم أُطوِّق جسدَ امرأتي بخُطُوطٍ صارمةٍ وجافّةٍ، بل حرّرتُ أدقّ تفاصيلِ جسدِها، لأنّ آخرَ الجسدِ ليس خُطُوطاً نسجنُهُ في

داخلِها. وفي هذا الجانبِ، قد يقاربُ النَّحاتون هذه الحقيقةَ أفضلَ منّا. إنّ الطبيعةَ تحتوي على سلسلةٍ لا تنتهي من الانثناءاتِ المنسوجةِ من بعضِها، وإذا رمْنا الدِّقَّةَ والصَّرامةَ، يُمكنُ أن نقولَ إنّه لا وُجُودَ لما نُسمّيه رسماً أصلاً! لا تضحكْ من هذا الكلام، أيُّها الفتى! فبقدرِ ما يبدو لكَ غريباً، سيأتي اليومُ الذي تفهمُ فيه علّتَهُ. إنّ الخطَّ هو الوسيلةُ التي يدركُ بها الإنسانُ تأثيرَ الضوءِ على الأشياء، ولكنْ، لا توجدُ خُطُوطٌ نهائيَّةٌ في الطبيعةِ، لأنّ كلَّ شيءٍ ممتلئٌ فيها، ونحنُ لا نرسمُ إلَّا من خلالِ تجريدِ أشياءِ الطبيعةِ ونمذجتِها، أي من خلالِ انتزاعِها وإخراجِها من البيئةِ التي تنتمي إليها، والضوءُ في هذه الحالةِ لا يفعلُ شيئاً غيرَ جَعْلِ موضوعِ اللّوحةِ مَرئيّاً! وبما أنّني لم أعتمدْ خُطُوطاً مغلَقَةً وصارمةً، نفختُ في محيطِ الجسدِ سحابةً من الأصفرِ الخفيفِ والدّافئِ على نحوٍ لا يمكنكَ معه أن تضعَ إصبعَكَ بدقَّة على المكانِ الذي ينتهي فيه الجسدُ، ويبدأ فيه محيطُهُ. إنّ نهايةَ الجسدِ هي بدايةُ اللّوحةِ! صحيحٌ أنّ العملَ قد يبدو ضبابيّاً ومفتقِراً إلى الدّقَّة عن قُربٍ، ولكنْ، بمجرَّدِ أن تتراجعَ خطوتَيْنِ إلى الوراءِ، وتنظرَ إليه، ستتَّضحُ الأشكالُ، ويأخذُ كلُّ شيءٍ مكانَهُ من اللّوحةِ، وستشعرُ بالهواءِ النَّقيِّ الخارجِ من اللّوحةِ وأنتَ ترى الجسدَ يتحرَّكُ وقد انفجرتْ فيه الحياة. مع ذلك، لستُ راضياً عنها بعدُ، ولديَّ شُكُوكٌ كثيرةٌ إزاءها. ربَّما سيكونُ من الأفضلِ عدمُ رسمِ أيِّ خطٍّ أصلاً، والانطلاقُ من

الألوانِ عاريةً فوقَ اللّوحةِ، ثمَّ استخراجُ الظّلالِ مباشرةً منها دونَ أيِّ خُطُوطٍ تَحُدُّ بينهما. أليس هذا ما تفعلهُ الشّمسُ، رسَّامةُ كَونِنَا الإلهيَّةُ؟ آه، أيَّتها الطبيعةُ الملعونةُ! مَنْ ذا الذي يمسكُ جمالَكِ الطّريدَ! والحال أنّ المعرفةَ الكبيرةَ مثلها مثل الجهلِ، لا تقودُ المرءَ إلَّا إلى النَّفيِ! أنا أشكُّ في عملي!

صَمَتَ العجوزُ لبُرْهَة، ثمَّ أضافَ: - إنّني أعملُ منذُ عشرةِ أعوامٍ، يا بُنَيَّ، لكنْ، ما هي عشرةُ عُويْمات عندما يتعلّقُ الأمرُ بمعركةٍ مع الطبيعةِ؟ نحنُ لا نعرفُ الوقتَ الذي قضَّاهُ بيجماليون في صُنعِ التماثيلِ حتَّى وَصَلَ إلى خَلْق تمثالٍ حَيٍّ!

شَرَدَ العجوزُ في حُلمٍ عميقٍ، وتجمَّدَ نَظَرُهُ بينما ظلَّتْ يَدُهُ تتلاعبُ بسكّينِهِ على نحوٍ رتيبٍ.

- ها هو يُحاوِرُ شيطانَهُ! قال بوربوس بصوتٍ منخفضٍ.

بسماعِ ذلك، اشرأبَّ عُنقُ نيكولاس بوسان وقد تملَّكَهُ فُضولُ فنّيٍّ رهيبٍ وغيرُ مُفسَّرٍ. أصبحَ هذا العجوزُ بعينَيْه الشَّاردَتَيْن أكثرَ من مجرَّدِ رسَّامٍ بالنسبةِ إليه، وبدا له عبقريّاً عجيباً، يعيشُ في عالمٍ بعيدٍ ومجهولٍ. استيقظتْ آلافُ الأفكارِ مختلطةً في رأسِهِ، ومثلما لا نستطيعُ أن نُترجِمَ إحساسَنا النّاجمَ عن الاستماعِ إلى أُغنيةٍ تُذكِّرُنا بالوطنِ بينما نكونُ في المنفى، لا يُمكننا أبداً أن نُحُدَّ بدقَّةٍ المشاعرَ النّاجمةَ عن هذا

النّوعِ من الإعجابِ. فَكَّرَ في احتقارِ هذا العجوزِ لأجملِ المحاولاتِ في الفنِّ، في ثراءِ ثقافتِهِ، وطريقةِ حديثِهِ الرائعةِ، فَكَّرَ في احترامِ بوربوس الكبيرِ له، وفي هذا العملِ الذي تكتَّمَ عليه طويلاً، هذا العملِ الصَّبورِ العبقريِّ بلا شكٍّ، فَكَّرَ في رأيِهِ في لوحةِ العذراءِ التي أُعجِبَ بها كثيراً، والتي مازالَ يراها جميلةً حتّى إلى جانبِ لوحةِ مابوز الرَّهيبةِ. كلُّ شيءٍ كان بالنسبةِ إليه تأكيداً، لا يدعُ أيَّ مجالٍ للشَّكِّ في أنّه أمامَ واحدٍ من عظماءِ الفنِّ، بل أمامَ شخصٍ، تتجاوزُ خصالُهُ كلُّها حُدُودَ الطّبيعةِ البشريَّةِ. أمَّا ما كان خيالُ نيكولاس بوسان الثَّرِيُّ قادراً على إدراكِهِ بطريقةٍ واضحةٍ وملموسةٍ وهو يتفرَّسُ في هذا الكائنِ الخارقِ، فكان صورةً مُكتملةً لطبيعةِ الفنَّانِ، تلك الطّبيعةِ المجنونةِ المنفجرةِ بما لا حَدَّ له من الطّاقةِ الإبداعيَّةِ التي يفتقرُ إليها، لسببٍ أو لآخرَ، البرجوازيُّون وبعضُ الهُواةِ الذين لا يعثرون على أيِّ شيءٍ في هذه الطُّرُقِ الوعرةِ والمقفرةِ بالنسبةِ إليهم. ولمَّا كان بوسان غارقاً في خيالاتِهِ، خرجتْ إليه العذراءُ من اللّوحةِ، وأخذتْهُ بجناحَيْها البيضاوَيْنِ في هذه الطُّرُقِ، فرأى الأحجارَ تستحيلُ ملاحمَ وقصوراً وأعمالَ فنٍّ خالدةً. وفجأةً، لم يعدْ هذا العجوزُ بالنسبةِ إليه فنَّاناً عظيماً فحسب، بل أصبحَ هو الفنَّ نفسَهُ، الفنَّ بأسرارِهِ وانفلاتاتِه وخيالاتِهِ التي لا تنتهي.

- نعم، عزيزي بوربوس، أردفَ فرينهوفر، إنّ ما ينقصُني إلى حَدِّ الآن هو لقاءُ امرأةٍ استثنائيَّةٍ ذاتِ جمالٍ مُطلقٍ وذاتِ بشرةٍ ...

لكنْ، قَاطَعَ نفسَهُ، أين سأجدُ هذه الربَّةَ؟ أين سأجدُ فينوس القُدامى الضَّائعةَ التي لطالما بحثْنا عنها، ولم نجدْ لها أثراً إلَّا في بعضِ الجميلاتِ اللَّائي يعترضْنَنا هنا وهناك؟ آه! إنّني مستعدٌّ لتقديمِ ثروتي كلِّها مقابلَ لحظة واحدة، أرى فيها اللهَ في امرأة! سأبحثُ عنكِ أينما كنتِ، يا أُنثاي الإلهيَّةَ! ولو تطلَّبَ الأمرُ أن أفعلَ مثلَ أورفيوس، سأنزلُ إلى الجحيمِ نفسِهِ، وأُرجِعُكِ إلى الحياةِ!

- بإمكانِنا أن نذهبَ، قال بوربوس لبوسان، إنَّهُ لم يعدْ يرانا أو يسمعُنا!

- لنذهبْ إلى ورشتِهِ، أجابَ الشَّابُّ مفتوناً.

- أوه! يعرفُ هذا المحاربُ العجوزُ جيِّداً كيف يمنعُنا من الدُّخُولِ. إنّ كنوزَهُ مخفيَّةٌ وبعيدةُ المنالِ، ولن نستطيعَ الوُصُولِ إليها. أتعتقدُ أنّني انتظرتُ أن تقترحَ عليَّ هذا لمحاولةِ اكتشافِها؟ لقد حاولتُ مراراً فَكَّ هذا اللُّغزِ بلا جدوى.

- ثمَّةَ لُغزٌ ما، إذنْ؟

- نعم، أجابَ بوربوس. إنّ فرينهوفر هو الرَّسَّامُ الوحيدُ الذي أرادهُ مابوز تلميذاً له. وبعد أن أصبحَ صديقَهُ ومنقذَهُ ووالدَهُ، ضحَّى فرينهوفر بأغلبِ ثروتِهِ لتلبيةِ رغباتِ مابوز وإرضاءِ أهوائِهِ؛ وفي المقابلِ، وهبَهُ

مابوزَ سرَّ الضوءِ؛ السِّرَّ الذي مكَّنَهُ من أن يهبَ شُخُوصَ لوحاتِهِ كلَّ هذه الحياةِ، زهرةَ الطبيعةِ تلك، ويأسَنا الأبديَّ؛ السِّرَّ الذي يعرفُهُ مابوز جيِّداً حتَّى إنّه في يومٍ من الأيَّامِ بعدَ أن باعَ بدلةَ الحريرِ المطرَّزةَ التي كان عليه أن يلبسَهَا في حفلِ استقبالِ شارل الخامس، وشربَ حدَّ الثّمالةِ بثمنِها، رَسَمَ له فرينهوفر بدلةً مطابقةً لها، وخاطَها من قماشِ اللّوحةِ إلى درجةِ أنّ الإمبراطورَ نفسَهُ تفاجأَ بروعتِها، ولكنَّهُ إذْ أرادَ الثّناءَ على مُرافقِ ذاكَ السّكّيرِ العجوزِ، اكتشفَ الخدعةَ. فرينهوفر رجلٌ شغوفٌ بفنّنا، يا بُنَيَّ. إنّه يرى أعلى من بقيّةِ الرَّسَّامين، وأبعدَ منهم. لقد تأمَّلَ طويلاً في الألوانِ، وفي الحقيقةِ المطلقةِ للخطِّ، ولكنَّهُ لفرطِ ما بَحَثَ، أصبحَ يشكُّ في موضوعِ بحثِهِ نفسِهِ. وفي لحظاتِ يأسِهِ، يدَّعي أنّ الرّسمَ لا وُجُودَ له، وأنّ الخُطُوطَ لا تسمحُ إلَّا بصناعةِ أشكالٍ هندسيّةٍ فارغةٍ من الحياةِ؛ الأمرُ الذي يبدو لي أبعدَ من الحقيقةِ بعدَ أنّنا يمكنُ أن نرسمَ شيئاً باستعمالِ الخُطُوطِ والأسود الذي ليس لوناً؛ وما يُثبتُ أنّ فنَّنا مثل الطبيعةِ مُتكوِّنٌ من عددٍ لا حصرَ له من العناصرِ، هو أن الرّسمَ بمثابةِ هيكلِ اللّوحةِ العَظْمِيِّ بينما يكونُ اللّونُ حياتَها، لكنَّ الحياةَ دون هيكلٍ عظميٍّ شيءٌ ناقصٌ مثل هيكلٍ عظميٍّ بلا حياةٍ. وفي النهايةِ، ثمَّةَ شيءٌ أهمُّ من كلِّ هذا، وهو أنّ الممارسةَ والملاحظةَ هما كلُّ شيءٍ بالنسبةِ إلى الرَّسَّام، وإذا حَصَلَ وأصبحتْ فرشاةُ الرَّسَّامِ موضوعَ صراعٍ بين ما يفكِّرُ فيه منطقيّاً

وشِعْرِيَّةَ الفكرةِ الإبداعيَّةِ التي يحملُها، سيصلُ إلى شكِّ هذا الرّجلِ العظيمِ الذي تُضاهي موهبتهُ جنُونَه. رسَّامٌ مهيبٌ يكرهُ فكرةَ أنّه وُلد ثريّاً، لأنّه يعتبرُ ذلك سببَ ذهابِهِ بعيداً في هذه الأفكارِ المرعبةِ. لا تُقلّدْهُ! عليكَ بالعملِ! وليس على الرَّسّامِ تأمُّلُ شيءٍ غيرِ فُرشاتِهِ.

- سوف ندخلُ! صَرَخَ بوسان كما لو توقَّفَ عن الإنصاتِ إلى بوربوس، وأصبحَ كلُّ شيءٍ واضحاً في ذهنِهِ.

ابتسمَ بوربوس لحماسِ هذا الشَّابِّ المجهولِ، وتركَهُ طالباً منهُ أن يُعاوِدَ زيارتَهُ.

خَرَجَ نيكولاس بوسان بخُطى متثاقلةٍ متَّجهاً إلى شارعِ الهَارْبْ، ودون أن يشعرَ فوَّتَ النُّزُلَ الصّغيرَ الذي كان يقيمُ فيه، وبمجرَّدِ أن عادَ أدراجَهُ، صَعدَ درَجَهُ البائسَ بتوتُّرٍ، ليصلَ إلى غرفةٍ علويَّةٍ، يُغطِّيها سقفٌ خشبيٌّ مهترئٌ مثل أيِّ بيتٍ باريسيٍّ قديمٍ، وقُربَ نافذةِ الغرفةِ الوحيدةِ والغارقةِ في الظّلمةِ، رأى شابَّةً، وقفَتْ مع انفتاحِ البابِ فجأةً بعينَيْنِ عاشقَتَيْنِ؛ لقد عرفتْهُ من الطّريقةِ التي أدارَ بها المقبضَ.

- ما بكَ؟ قالت له.

- لقد .. لقد .. صَرَخَ مختنقاً بسعادتِهِ .. شعرتُ اليومَ أنّني رسَّامٌ

بحقٍّ! لطالما شَكَكْتُ في موهبتي، ولكنّني آمنتُ بنفسي هذا الصّباح! بإمكاني أن أصبحَ رجلاً عظيماً! نعم، يا جيليت! سنُصبحُ أثرياءَ وسعداءَ! ثمّةَ كُنُوزٌ من الذهبِ في فُرَشِ الرَّسْمِ هذه.

صَمَتَ فجأةً، خَفَتَ فرحُهُ، وفَقَدَ الحماسَ الذي دَخَلَ به كلَّ بريقِهِ، بمجرَّدِ أنّ قارنَ حجمَ أحلامِهِ بضآلةِ مواردِهِ. كانت جُدرانُ غرفتِهِ مُغطَّاةً بأوراقٍ صغيرةٍ، تحملُ بعضَ الرُّسُومِ التي أنجزَها بقلمِ الرصاصِ اليتيمِ الذي لديه. لم يكنْ يملكُ أيَّ قماشةِ رَسْمٍ نظيفةٍ. وأمّا الألوانُ، فباهظةٌ عليه. كان المسكينُ يتفرَّسُ في لوحةِ ألوانِهِ شبهِ العاريةِ. ولكنَّهُ وسطَ هذا البؤسِ، كان يملكُ قلباً كبيراً، وعبقريّةً فنيّةً فذّةً. وبعد أن جاءَ به أحدُ أصدقائه إلى باريس - ربّما أتتْ به موهبتُهُ نفسُها - التقى فجأةً بامرأةٍ أحبَّها، وكانت واحدةً من أولئكَ النّساءِ النبيلاتِ السَّخيَّاتِ اللّائي يُضحّينَ بكلِّ شيءٍ من أجلِ الوُقُوفِ إلى جانبِ رجلٍ يُحبِبْنَهُ متحمِّلاتٍ بؤسَهُ، ومتفهِّماتٍ نزواتِهِ، الشَّرساتِ في الحُبِّ والقويَّاتِ أمامَ الفقرِ، لا من أولئكَ اللَّائي يشترطنَ على رجالهنَّ الرّخاءَ، وينزعجن من كلِّ شيءٍ لا يعجبُ فخامتَهُنَّ. كانت الابتسامةُ الرّائعةُ على شَفَتَيْ جيليت تُزيِّنُ الغرفةَ، وتضاهي السّماءَ في تألُّقِها. أمَّا الشَّمسُ، فلا يُشعُّ بريقُها أبداً طالما هي موجودةٌ بشغفِها الكبيرِ، وفرحِها وألمِها وهي تواسي رجلَها العبقريَّ الذي غَرِقَ في الحُبِّ بقَدْرِ غرقِهِ في الفنِّ.

- اسمعيني، جيليت، تعاليْ.

نطَّت الفتاةُ المطيعةُ في مرجٍ أمامَ الرَّسّامِ. كانت النعمةَ كلَّها والجمالَ كلَّه، رائعةً مثل الرّبيع، ومكتنزةً ببذخٍ أُنثويٍّ رهيبٍ، تُلهِبُهُ روحٌ مُشاغبةٌ جميلةٌ.

- يا إلهي! صَرَخَ، لن أجرؤَ على إخبارِها!

- هل هو سرٌّ؟ أردفتْ. أريدُ أن أعرفَهُ الآن!

ظلَّ بوسان حالماً.

- هيَّا، تكلَّمْ!

- يا لحبيبتي المسكينة!

- أوه! هل تريدُ منّي شيئاً؟

- نعم.

- إذا كُنتَ ترغبُ في أن أقفَ عاريةً أمامَكَ مثلَ المرّةِ الفارطةِ، قالتْ بنبرةٍ حزينةٍ، لن أُوافقَ على ذلك أبداً، لأنّ عينيْكَ في هذه اللّحظاتِ لا تقولان لي شيئاً؛ وعلى الرّغمِ من أنّكَ تظلُّ تنظرُ إليَّ بلا توقُّفٍ، أشعرُ أنّكَ لا تفكّرُ بي أصلاً بينما ترسمُني.

- هل سترغبين في رؤيتي أرسمُ امرأةً أخرى؟

- نعم، ربَّما، قالت، بشرطِ أن تكونَ قبيحةً!

- ها! حسناً! أردفَ بوسان بنبرةٍ جادَّة. وما رأيكِ في أن يكونَ مجدي وعظمتي ونجاحي كلُّه رهينَ وُقوفِكِ أمامَ رسَّامٍ آخرَ؟

- تريدُ أن تختبرَني، إذنْ؟ حسناً، قالت، أظنُّ أنّكَ تعرفُ جيِّداً أنّني لن أقفَ أمامَ أيِّ رسَّام آخرَ.

أَنْزَلَ بوسان رأسَهُ مثل مَنْ يستسلمُ إلى فرحٍ أو ألمٍ قويٍّ.

- اسمعْني، قالت جاذبةً بوسان من كُمِّ قميصِهِ البالي، نيكولاس، لقد أخبرتُكَ أنّني مستعدَّةٌ للتضحيةِ بحياتي من أجلكَ، لكنّني لستُ مستعدَّة أبداً - طالما حييتُ - لأن أتخلَّى عن حُبّي لكَ.

- تخلّين عن حُبِّكِ لي؟! صَرَخَ بوسان.

- إذا وقفتُ أمامَ رجلٍ آخرَ، فستتوقَّفُ عن حُبّي. أمَّا أنا، فلن أرى نفسي جديرةً بكَ بعدَها. إنّ مطاوعةَ نزواتِكَ أنتَ أمرٌ طبيعيٌّ وبسيطٌ، أليس كذلك؟ وإنّني لسعيدةٌ بهذا، بل ونخورةٌ بالخُضُوعِ إلى مشيئتِكَ، أمَّا أن أفعلَ ذلك من أجل رجلٍ آخرَ، فهذا محالٌ! دعْني وشأني!

- سامحيني، يا حبيبتي، سامحيني! قال الرَّسَّامُ مرتمياً على ركبَتَيْه. إنّني أفضِّلُ كلَّ هذا الحُبِّ على أيِّ مجد. وبالنسبةِ إليَّ، أنتِ أجملُ من الثروةِ ومن رفعةِ المقام. انهضي الآن، وارمي كلَّ فُرَشي، واحرِقي كلَّ رُسُومي. لقد كنتُ مخطئاً. إنّ موهبَتي الحقيقيَّةَ هي أن أُحبَّكِ. لستُ رسَّاماً، بل عاشقاً. وليذهبِ الفنُّ بأسرارِهِ كلِّها إلى الجحيمِ!

ازدادَ عشقُها له في تلك اللّحظةِ، وشعرتْ بسعادة وافتتان كبيرَيْن. أحسَّتْ أخيراً أنّها أهمُّ من أيِّ شيءٍ، وفكَّرتْ بُرْهَةً أنّ جميعَ الفُنُون يُمكنُ أن تُنسَى من أجلِها، وارتمتْ عندَ قَدَمَيْه، وقد ذابتْ مثلَ حبَّةِ بخور.

- إنّهُ مجرَّدُ عجوز، أردفَ بوسان. ولن يستطيعَ فعلَ شيءٍ إلّا رؤية المرأةِ فيكِ. أنتِ مثاليَّةٌ جدّاً!

- على المرءِ أن يفعلَ كلَّ شيءٍ من أجلِ مَن يُحبُّ! صرختْ مستعدَّةً للتضحيةِ بمخاوفِها مكافأةً لحبيبِها على كلِّ التضحياتِ التي قامَ بها من أجلِها. لكنَّني، أضافتْ، سأخسرُ نفسي! آه! أخسر نفسي من أجلِكَ! نعم، هذا جميلُ جدّاً! لكنْ، سيكونُ عليك أن تنسانيَ بعد ذلك. أوف! هل أنتَ واعٍ بمدى شيطانيَّةِ الأفكارِ التي أتيتَ بها؟!

- نعم، وأُحبُّكِ. قال بنوعٍ من النّدمِ. أنا رجلُ مشينُ حقّاً.

- هل نستشيرُ الأبَ هاردوين؟ قالت.

- لا. يجبُ أن يبقَى هذا الأمرُ سرّاً بيننا.

- حسناً، إذنْ! سأذهبُ، ولكنْ، لا تكنْ هناك، قالت. إِصْطَحِبْ خنجرَكَ الصّغيرَ، وابقَ عندَ البابِ، وإذا سمعتَني أصرخُ، أُدخلْ، واقتلِ الرَّسام.

دون أن يفكّرَ في شيءٍ آخرَ غيرِ فنّهِ، أخذَ بوسان جيليت بين ذراعَيْه.

- لم يعد يُحبُّني. فكّرتْ جيليت في سرِّها بعد أن خَرَجَ.

كانت نادمةً على قرارِها، ولكنّها سرعانَ ما صارتْ فريسةً لفكرةٍ أكثر قسوةً من ندمِها، وعلى الرّغم من محاولاتِها العديدةِ في طَرْدِها، لم تستطع تجاهُلَ فظاعةِ أنّها لم تعدْ تُحبُّ الرَّسامَ أو تحترمَهُ كما كانت تفعلُ من قبلُ.

- II -

كاترين لِسكو

بعد ثلاثةِ أشهر من لقائِهِ ببوسان، ذَهَبَ بوربوس لزيارةِ الأستاذِ فرينهوفر. كان العجوزُ وقتَها في قبضةٍ واحدةٍ من أسوأِ حالاتِهِ المَرَضيةِ المُفاجِئةِ. صحِّياً، قال الأطبَّاءُ - والعُهدةُ على مَنْ رَوَى - إنّه كان يعاني من مغصٍ في المعدةِ، وانتفاخٍ في الطّحالِ، تسبَّبا له في شيءٍ من الحُمَّى وعُسرِ الهضْمِ؛ ونَفْسيّاً، كان يرزحُ تحتَ وطأةِ التفكيرِ في محدوديةِ طبيعتِنا الرُّوحيَّة. سئِمَ الرّجلُ من لوحتِهِ اللُّغزِ، وتعبَ من انفلاتِها المستمرِّ في كلِّ مرَّةٍ يحاولُ فيها أن يُكمِلَها. كان يجلسُ وهناً على كرسيٍّ فسيحٍ، صُقِلَ من خشبِ السنديانِ، وجُلِّدَ بقماشٍ أسود. وغارقاً في أمزجتِهِ الحزينةِ، ألقى على بوربوس نظرةَ رجلٍ متصالحٍ مع تعبِهِ ويأسِهِ.

- هاه، أستاذنا! قال بوربوس، هل كان صبغُ اللاَّزورد الذي ذهبتَ لتبحثَ عنهُ في برُوجْ (5) سيِّئاً؟ ألم تتمكَّنْ من تذويبِ الأبيضِ الذي أضفتَهُ آخرَ مرَّةٍ؟ ألا تطيعُكَ أمزجةُ الألوانِ أم أنّ فُرَشَكَ تُعانِدُ يَدَيْكَ؟

- اللعنة! صَرَخَ العجوزُ، لقد ظننتُ لوَهْلَةَ أنّني انتهيتُ منها! لكنّني

انخدعتُ كالعادةِ ببعضِ التفاصيلِ، ولن يهدأَ لي بالٌ حتَّى أتخلَّصَ من شُكُوكِي كلِّها. لقد قرَّرتُ أن أسافرَ إلى تركيا واليونان وآسيا، وأبحثَ عن عارضاتٍ أُخرياتٍ حتَّى أقارنَ لوحتي بمختلفِ أنواعِ الجمالِ الأُنثويِّ. فربَّما، أردفَ بابتسامةٍ ماكرةٍ، يكونُ لديَّ في ورشتي جوهرُ أيِّ جمالٍ! وإنّني لأرتعبُ في بعضِ الأحيانِ من أن تخرجَ من لوحتِها في غفلةٍ منِّي، وتختفيَ إلى الأبدِ.

فجأةً، نهضَ كَمَنْ يهمُّ بالرّحيلِ.

- أوه! أوه! أجابَ بوربوس، لقد جئتُ في الوقتِ المناسبِ، لأُوفِّرَ عليكَ مصاريفَ الرّحلةِ ومتاعبَها.

- كيف؟ .. سأل فرينهوفر مدهوشاً.

- لدى الشّابِّ بوسان عشيقةٌ ذاتُ جمالٍ إلهيٍّ، لا يُضاهَى، جمالٌ لن تلمَسَ فيه نقصاً واحداً! لكنَّ أستاذي العزيزَ، في حالِ وافقَ على إعارتِكَ إيَّاها، سيكونُ عليكَ على الأقلِّ أن تسمحَ لنا بالاطّلاعِ على لوحتِكَ.

ظلَّ العجوزُ واقفاً بلا حراكٍ في حالةِ ذُهُولٍ تامٍّ.

- كيف هذا؟! صرخَ أخيراً بنبرةٍ مجروحةٍ، أَأُطلِعُكُما على الكائنِ الذي خلقتهُ بيدَيَّ؟ أَأُطلِعُكُما على زوجتي، وأزيلُ عنها حجابَ عفَّتِها

الذي غطّيتُ به سعادتي وهنائي؟ إنّهُ لبغاءٌ رهيبٌ أن أفعلَ ذلك! إنّني أعيشُ مع هذه المرأةِ منذُ عشرِ سنوات، إنّها لي، ولي وحدي؛ كما أنها تُحبُّني. أَوَلَمْ تكنْ تبتسمُ إليَّ مع كلِّ ضربة فرشاة، وجّهتُها إليها؟ إنّها تملكُ روحاً أيضاً، الرّوح التي وهبتُها إيَّاها. إنها ستحمرُّ خجلاً إذا نظرتْ إليها عيونٌ أخرى غير عينيَّ. أن تسمحَ لنا بالاطّلاع على لوحتِكَ! ها ها! مَنْ هو الزّوجُ أو العاشقُ الذي يملكُ هذا الكمَّ من الدناءةِ حتّى يُحِلَّ بامرأته العارَ؟ عندما ترسمُ لوحةً للقصرِ الملَكيّ، أنتَ لا تضعُ فيها روحَكَ كلَّها، وإنّما تبيعُ للحاشيةِ الملَكيَّةِ بعضَ النماذجِ الملوَّنةِ التي تستهوي أنفسَهم وتُرضي غرُورَهُم. أمَّا لوحتي، فليست لوحةً! إنّها إحساسٌ، بل شغفٌ لا ينتهي! وبما أنّها وُلدت في ورشتِي، فيجبُ أن تظلَّ عذراءَ هناك، ولن أسمحَ لها بالخرُوجِ إلّا مرتديةً ملابسها. ومثلها مثل الشّعْر، لا تهبُ المرأةُ نفسَها عاريةً إلّا لعاشقِها المتولِّه. هل نعرفُ شيئاً عن امرأةِ رافاييل؟ هل نعرفُ شيئاً عن أنجليكا التي قادتْ أوريوستو إلى الجنُونِ، أو بياتريس التي لم تُلهِمْ دانتي امرأةً غيرها؟ لا! إنّنا لا نرى سوى أشكالهنَّ أو نتخيَّلها. إيه! حسناً! لتعلم، إذنْ، أنّ العملَ الذي أحتفظُ به فوقَ مغلِقاً عليه بالأقفالِ ورشتي، هو استثناءُ فنّنا العظيم. إنّها ليست لوحةً، بل امرأةً! امرأةً أضحكُ معها وأبكي وأتحدَّثُ وأفكِّرُ. هل تريدُ منّي أن أتخلّى فجأةً عن عشرِ سنواتٍ من السعادةِ والحُبِّ، كما لو أنّني سأنزعُ معطفاً؟ أن

أتوقَّفَ فجأةً عن أن أكونَ أباً وحبيباً وإلهاً؟ هذه المرأةُ ليست مخلوقةً، يا صديقي، إنّها الخلْقُ في حدِّ ذاته. اِئتَني بهذا الشّابِّ. سأهبهُ ثرواتي كلّها، سأعطيه لوحاتِ كوريّجيو ومايكل أنجلو وتيتان، سأبوسُ غبارَ الأرضِ تحتَ نعلِهِ، لكنْ، لن أسمحَ أبداً بأن يقفَ لحظةً واحدةً إلى جانبي أمامَها! يا لهُ من عارٍ! ها! ها! ها إنّي ما زلتُ عاشقاً أكثرَ من كوني رسّاماً. نعم، إنّني كذلك، وحتّى وأنا ألفظُ أنفاسي الأخيرةَ، ستكون لديَّ القوّةُ لأحرقَ امرأتي المغناجَ على أن أجعلَها تتحمّلُ عبءَ رجلٍ شابٍّ ورسّامٍ يخدشُها بعينَيه! لا! لن يحصلَ هذا! سأقتلُ كلَّ مَنْ يحاولُ أن يدنِّسَها بنظرةٍ! وحتّى أنتَ، يا صديقي، سأقتلُكَ مباشرةً، إذا لم تركعْ أمامَها بإجلالٍ! أتريدُني الآن أن أضعَ مُلهِمَتي أمامَ نظراتِ النّقّادِ الحمْقى الباردةِ والغبيّةِ؟ آه! الحُبُّ لغزٌ، لا حياةَ له إلّا في أعماقِ القُلُوب، وكلُّ شيءٍ يضيعُ بمجرّدِ أن يقولَ رجلٌ لرجلٍ آخر حتّى وإن كان صديقَه: - ها هي حبيبتي!

كان هذا العجوزُ الطّاعنُ يتكلّمُ كما لو عادَ شابّاً فجأةً، كانت عيناه تتلألآن حياةً وابتهاجاً بينما انفجرَ الدّمُ في وجنتَيه الشّاحبتَين، وارتجفتْ يداه. ومدهوشاً أمامَ العنفِ والشّغفِ اللّذَيْن تملّكا صديقَهُ بينما يتحدّثُ عن لوحتِهِ، لم يملكْ بوربوس إلّا أن يتعاطفَ مع مشاعرِهِ الصّادقةِ والعميقةِ. هل كان فرينهوفر عقلانيّاً أم مجنوناً؟ هل كانت الأفكارُ التي عبّرَ عنها بكلِّ هذا التّعصّبِ مجرّدَ تهويماتٍ، أم أنّها

مرتبطةً بذاكَ المخاضِ الطويلِ الذي يحفُّ بولادةِ عملٍ فنّيٍّ عظيمٍ؟ هل يمكنُ أن يأملَ في التخفيفِ من حِدَّةِ هذا الشَّغفِ العجيبِ؟

غارقاً في هذه الأفكارِ والأسئلةِ، قال بوربوس للعجوزِ:

- لكنْ، ألن تكونَ امرأةٌ بامرأةٍ؟ ألن يسمحَ لكَ بوسان أيضاً برؤيةِ حبيبتهِ؟

- عن أيِّ حبيبةٍ تتحدَّثُ؟! أجابَ فرينهوفر، ستخونُهُ عاجلاً أم آجلاً، أمَّا حبيبتي، فستظلُّ مخلصةً لي إلى الأبدِ!

- هاه! حسناً، إذنْ، أردفَ بوربوس، لن أتحدَّثَ عن هذا الأمرِ بعدَ الآن. لكنْ، أنا متأكِّدٌ من أنّكَ لن تجدَ امرأةً في جمالِ المرأةِ التي أتحدَّثُ عنها وكمالها حتَّى وإن ذهبتَ إلى الصّينِ! وربَّما ستموتُ وأنتَ تبحثُ عنها، ولن تُنهيَ لوحتَكَ أبداً!

- أوه! لقد انتهيتُ منها! قال فرينهوفر. امرأةٌ تستلقي على سريرٍ مخمليٍّ بستائرَ شفَّافةٍ، وإلى جانبِها مبخرةٌ ذهبيَّةٌ تشتعلُ. ستشعرُ وأنتَ تنظرُ برغبةٍ عنيفةٍ في فتْحِ السّتارةِ، وسيبدو لكَ أنّكَ ترى نهدَ كاترين ليسكو، الجميلةِ المغناجِ، يعلو ويهبط مع تنفُّسِها البطيءِ. مع ذلكَ، أريدُ أن أتأكَّدَ من ...

- اِذْهَبْ إلى الصّينِ، إذنْ! قاطعَهُ بوربوس لامِساً شيئاً من التَّردُّدِ

في عينَيه، ثمّ همّ بالمغادرة. في تلك اللحظة، وصلَ بوسان وجيليت إلى بيتِ فرينهوفر. ولمّا يهمّا بالدُّخولِ، سحبَت الفتاةُ يدَها من ذراع الرسّامِ، وتراجعتْ كما لو شعرتْ بضيقٍ مفاجئ.

- ما الذي أفعلُه هنا؟ سألتْ حبيبَها بصوتٍ عميقٍ رامقةً إيّاهُ بنظرةٍ ثاقبةٍ.

- جيليت، لقد تركتُ لكِ القرارَ، وأخبرتُكَ أنّني مستعدٌّ لأن لا نفعلَ هذا! أنتِ روحي ومجدي .. عُودي إلى الغرفةِ، فربّما سأكونُ أكثرَ سعادةً إذا لم ...

- هل أنا حُرّةٌ حقّاً عندما تتحدّثُ معي على هذا النّحْو؟ أوه! لا. لستُ سوى مجرّدِ طفلةٍ مطيعةٍ بالنسبةِ إليكَ. ليكنْ! قالت وقد بدا الإجهادُ على ملامحِها، إذا ضاع حُبُّنا وتملّكَ قلبي ندمٌ طويلٌ، ألن تكونَ شهرتُكَ عزاءً مناسباً لي خاصّةً وأنّها ستكونُ ثمرةَ تلبيتي لرغباتِكَ؟ لندخلْ! إنّني أفضّلُ الخلُودَ على أن أظلَّ مجرّدَ ذكرى عابرةٍ في إحدى لوحاتِكَ!

بمجرّدِ أن جاوزَ العاشقان عتبةَ البابِ، التقيا ببوربوس. وما إن رأى الدُّموعَ تملأُ عينَيها حتّى ذُهِلَ بجمالِ جيليت المرتجفةِ، وأخذَها بسرعةٍ إلى العجوزِ: - انظرْ إليها! قال، ألا تستحقُّ أعمالَ العالمِ الفنّيّةَ الخالدةَ كلَّها؟

تجمّدَ فرينهوفر في مكانِه، بينما وقفتْ جيليت بسذاجةِ شابّةٍ جميلةٍ بريئةٍ وخائفةٍ وممتنّةٍ لبعضِ الأوغادِ الذين يعرضُونَها في أحدِ أسواقِ العبيدِ. وباحمرارٍ خفيفٍ يعلو وجهَها، أنزلتْ عينَيْها إلى الأرضِ، وأطلقتْ يَدَيْها من الجانبَيْنِ، كما لو خانتْها إرادتُها، بينما غصَّ حلقُها، وانهمرتْ دُموعُها ببطءٍ في احتجاجٍ واضحٍ على استغلالِ حبيبِها لطيبتِها وسذاجتِها.

في تلك اللّحظةِ، كان بوسان في سرِّهِ يلعنُ نفسَهُ نادماً على إخراجِ هذا الكنزِ العظيمِ من تلك الغرفةِ العلويّةِ المتواضعةِ. ولوَهْلَةٍ، تغلّبَ العاشقُ فيه على الفنّانِ، وأحسَّ بألفِ سكّينٍ تنغرسُ في قلبِهِ وهو يرى العجوزَ يأكلُها بعينَيْه، ويجرّدُها بحَدْسِ الرّسّامِ من كلِّ ملابسِها مخمّناً مغاوِرَها الأُنثويّةَ الأكثرَ سرّيّةً. ودون أن يشعرَ صرَخَ بوسان بغَيْرةِ عاشقٍ شغوفٍ:

- جيليت! لنغادرْ هذا المكانَ اللّعينَ!

مبتهجةً بصرختِهِ المرتبكةِ، رفعتْ حبيبتُهُ عينَيْها، ونظرتْ إليه بُرْهَةً، ثمَّ ارتمتْ بين ذراعَيْه.

- آه! أنتَ تحبُّني، إذنْ! قالت بعينَيْنِ ممطرتَيْن. لم تستطعْ إخفاءَ سعادتِها بعد أن استنفدَت كلَّ طاقتِها في إخفاءِ ألمِها.

- أوه! اتركها معي لحظةً، قال الرَّسَّامُ العجوزُ، وستُقارنها بكاترينتي الرَّائعة. نعم، أنا موافقٌ على عرضِكَ!

بدت صرخةُ فرينهوفر صرخةَ عاشقٍ مغرورٍ. وبدا كَمَنْ يخبِّئُ غنجاً أنثوياً استثنائياً، ويستمتع مُسبَّقاً بانتصارِ جمالِ عذرائِهِ المتخيَّلةِ على جمالِ شابَّةٍ حقيقيَّةٍ.

- لا تتركْ له الفرصةَ ليُغيِّرِ رأيَهُ! هتف بوربوس مربِّتاً على كتفِ بوسان. لا تنسَ أنَّ ثمارَ الحُبِّ سريعاً ما تنتهي؛ أمَّا ثمارُ الفنِّ، فخالدةٌ، لا تزولُ.

- أنا مجرَّدُ امرأةٍ في نظرِهِ، إذنْ! أجابت جيليت ملتفتةً إلى بوسان وبوربوس رافعةً رأسَها بثقةٍ ونخرٍ. لكنْ، عندما التفتت إلى فرينهوفر لتُلقي عليه نظرةَ كبرياءٍ ثاقبةً، كان العجوزُ ينظرُ إلى حبيبِها الذي غرقَ في تأمُّلِ لوحةِ العذراءِ المعلَّقةِ على الجدارِ مجدَّداً:

- آه ! قالت، لِنَصْعَدْ! إنّني لم أرهُ يوماً ينظرُ إليَّ على هذا النَّحْو!

- انظرْ، أيُّها العجوزُ، أردفَ بوسان كما لو انتشلَهُ صوتُ جيليت من تأمُّلاتِهِ الشَّيطانيَّةِ، هل ترى هذا الخنجرَ؟ سأغرسُهُ في قلبكَ مع أوَّلِ كلمةٍ تشتكي بها هذه الفتاةُ منكَ؛ وسأحرقُ بيتَكَ، ولن يخرجَ أحدٌ منه. هل فهمتَ؟

كان نيكولاس بوسان جاهزاً بالفعلِ للقيامِ بكلِّ ما قالَهُ، وعلى الرّغمِ من أنّ كلماته كانت مروِّعةً، فقد كانت بالنسبةِ إلى جيليت عزاءً، جَعَلَهَا تُسامحُهُ على التّضحية بها من أجلِ الفنِّ، ومن أجلِ مستقبلِهِ المجيدِ. ظلَّ بوربوس وبوسان واقفَيْن عند بابِ الورشةِ يتبادلان بعضَ النظراتِ في صمتٍ، حاولَ رسَّام مريم المصريَّة أن يكسرَهُ في أكثرَ من مناسبةٍ بعباراتٍ من قبيل: آه .. إنّها تنزعُ ملابسَها .. ها هو يطلبُ منها أنْ تقفَ تحتَ الضوءِ! .. ها هو يُقارنُها بامرأتِهِ! لكنَّهُ سرعان ما لزمَ الصَّمتَ مجدَّداً وهو يرى وجهَ بوسان الحزين. وعلى الرّغم من أنّ كبارَ الرَّسَّامين لا يعيرون أيَّ اهتمام لهذه الوساوسِ التي يعتبرونَها من صغائرِ الأُمورِ أمامَ الفنِّ، فقد كانوا يُحبُّونها طالما كانت صادقةً وجميلةً. كان الشَّابُّ يضعُ يدَهُ على خنجرِهِ بينما تكادُ أُذُنُهُ تلتصقُ بالباب. وبدا كلاهما، وهما يقفان في الظّلمة مثلَ متآمرَيْن، ينتظران اللحظةَ المناسبةَ لاغتيالِ ملكٍ غاشمٍ.

- ادخُلا، ادخُلا. قال لهما العجوزُ وقد تملَّكتْهُ السعادةُ. إنّ عملي مثاليٌّ، وبإمكاني الآن أن أُطلِعَكُما عليه بافتخارٍ. لا يُمكنُ لأيِّ رسَّامٍ أو فرشاةٍ أو ألوانٍ أو أيِّ لوحةٍ في الضّوءِ أن ينافسوا كاترين ليسكو، جميلتي المغناج.

ركضَ بوربوس وبوسان إلى الدّاخلِ، وقد تملَّكهما الفُضُولُ.

كانت الورشةُ غارقةً في الغبارِ والفوضى، ولم يكنْ ثمَّةَ شيءٌ واحدٌ في مكانِهِ. مشيا بهُدُوءٍ أمامَ اللّوحاتِ المعلَّقةِ على الجدرانِ من هنا وهناك، إلى أن وقفا أمامَ لوحةٍ أعجبتْهُما لامرأةٍ نصفِ عاريةٍ.

- أوه ! لا تُعيرا هذه اللّوحةَ أيَّ اهتمامٍ، قال فرينهوفر، إنّها خربشةٌ صغيرةٌ قمتُ بها منذُ وقتٍ طويلٍ، لأُجرِّبَ بعضَ الأشياءِ التافهةِ. هذه اللوحةُ لا قيمةَ لها. ها هي أخطائي كلُّها! أردفَ مشيراً بيَدَيْهِ إلى الأعمالِ المعلَّقة على الجُدرانِ من حولهم.

مَدهوشَيْن من احتقارِهِ لأعمالِهِ التي بدتْ لهما مذهلَةً، واصَلَ بوربوس وبوسان بحثَهُما عن اللّوحةِ المبتغاةِ بلا جدوى.

- هاه! حسناً، ها هي! قال العجوزُ بشَعْرٍ منفوشٍ، ووجه مضطربٍ، على نحوٍ غير طبيعيّ. ومثبِّتاً نَظَرَهُ عليهما، تطايرَ الشَّرَرَ من عينَيْه، وصار يصرخُ مثل شابٍّ أسكرَهُ الحُبُّ: - ها! لم تتوقَّعا كمالاً مشابهاً، أليس كذلك؟ ها أنتُما أمامَ امرأةٍ بينما تبحثان عن لوحةٍ! ثمَّةَ الكثيرُ من العمقِ في هذا العملِ، وحتَّى الهواءُ المحيطُ به حقيقيٌّ إلى درجةٍ أنّه لم يعد بإمكانِكُما تمييزُهُ عن الهواءِ المحيطِ بنا. تسألُونني عن الفنِّ؟ لقد اختفَى كلُّه! ها هي امرأةٌ حقيقيَّةٌ. ألم أُذوِّبْ حدَّةَ الخطِّ الذي يُوهِمُ بأنّه يُحوِّطُ الجسدَ؟ أليس هذا هو الدّرسُ الذي تُقدِّمُهُ إلينا الأشياءُ وهي تسبحُ في الفضاءِ مثلما تسبحُ الحيتانُ في الماءِ؟ ها هو

الجوهرُ يتحرَّرُ من الامتداد! ألا يبدو لكما أنّه بإمكانِ المرءِ أن يُمرِّرَ يدَهُ على هذا الظَّهْرِ؟ لقد عملتُ سبعَ سنوات بأكملِها لأفهمَ الأثرَ الممكنَ من زواجِ الضّوءِ مع الأشياءِ. ألا تريان الضّوءَ يُلهِبُ شَعْرَهَا الجميلَ؟ انظرا! لقد تنفَّستِ الآنَ! ... هل تريان نهدَها كيف يرتفعُ؟ يا لروعتِها! مَن لَن يركعَ أمامَ هذه الرّائعة؟ انظرا إلى جسدِها كيف ينبضُ بالحياةِ. انتظرَا! سوف تنهضُ قريباً.

- هل ترى شيئاً؟ سألَ بوسان بوربوس.

- لا.. وأنتَ؟

- لا شيء.

تركَ الرَّسّامان العجوزَ لنشوتِهِ، ونظرا إلى اللّوحةِ، ليتبيَّنا ما إذا لم يبرزِ الضوءُ العموديُّ المسلَّطُ على جميع جوانبِها. نظرا إليها من الأمامِ، وقلَّباها من فوق ومن تحت، ويميناً ويساراً دون أن يجدا شيئاً جديداً.

- إنّها لوحةٌ فنّيّةٌ، وليست شيئاً آخرَ، يا صديقَيَّ. قال فرينهوفر ساخراً من فحصِهما الدّقيقِ لها. ألا تريان الإطارَ المحيطَ بالقماشِ؟ ألا تريان المسندَ الذي وُضِعَتْ عليه؟ ألا تريان ألواني وفُرَشي؟

أخذَ فرشاةً، وقدَّمها إليهما بحركةٍ سخيفةٍ.

- هذا العجوزُ البائسُ يسخرُ منَّا. قال بوسان عائداً أمامَ اللّوحةِ

المزعومةِ. إنّني لا أرى هنا إلّا ألواناً مكدَّسةً ووابلاً من الخُطُوطِ التي لا تعني شيئاً.

- ربَّما نكونُ مخطِئَيْن .. انظرْ .. أردفَ بوربوس.

اقتربا من اللّوحةِ أكثرَ، فلاحَظَا في إحدى زواياها قَدَماً صغيرةً عاريةً تخرجُ من سرابِ اللّوحة وفوضى الألوانِ المتكدّسةِ فيها ضباباً لا شكلَ له. كانت قَدَماً صغيرةً لذيذةً تنبضُ بالحياة! تجمَّدَ الرَّسامان من الإعجابِ أمامَ هذه الشَّذرةِ المنفلتةِ من مسارٍ بطيءٍ وتدريجيٍّ ومروِّعٍ من التخريبِ. وبدت كما لو كانت نُتفةَ رخامٍ متبقّيةً من آلهةٍ قديمةٍ وسطَ أنقاضِ مدينةٍ محترقةٍ.

- توجدُ امرأةٌ تحتَ هذه الألوان! هتَفَ بوربوس لافتاً نَظَرَ بوسان إلى طبقاتِ الألوانِ التي كدَّسَها الرَّسَّامُ العجوزُ فوقَ لوحتِهِ معتقِداً أنّهُ يُطوِّرها.

وبحركةٍ عفويَّة، التفتَ الرَّسّامان معاً إلى فرينهوفر وقد بدآ يفهمان، وإن بطريقةٍ غامضةٍ، النشوةَ التي كان يعيشُ بها طيلةَ السنواتِ الماضيةِ.

- لا. إنّهُ يؤمِنُ بما يقولُ! قال بوربوس.

- نعم، يا صديقي، قال العجوزُ كما لو استيقظَ من حُلمٍ، يحتاجُ

الفنُّ إلى الإيمانِ، كما يحتاجُ إلى أن تُعاشِرَ عملَكَ طويلاً حتَّى تصلَ إلى إبداعٍ مُشابهٍ. لقد كلَّفتْني بعضُ هذه الظِّلالِ سنواتٍ من العملِ. انظرْ مثلاً إلى ذاكَ الضّوءِ الخفيفِ أسفلَ عينَيْها؛ إنّهُ ضوءُ وجنتِها الذي سيبدو لكَ غيرَ قابلٍ للترجمةِ، إذا نظرتَ إليه في الطبيعةِ. هاه! أتعتقدُ أنّ هذا التفصيلَ البسيطَ لم يُكلِّفني مشاقّاً، لا يُمكنُ لبشرٍ أن يستحملَها؟ لكنْ، تأمَّلْ بقيّةَ العملِ بعنايةٍ أيضاً، يا بوربوس العزيز، وستفهمُ، بشكلٍ أفضلَ، ما قلتهُ لكَ عن طريقةِ معالجةِ الجوهرِ والامتدادِ. انظرْ إلى ضوءِ النَّهدِ، وسترى كيف تمكَّنتُ من خلالِ سلسلةٍ من اللّمساتِ التي عوَّلتْ فيها على سُمكِ الفرشاةِ المستعملةِ، من الإمساكِ بالضّوءِ الحقيقيِّ، وإدماجِهِ مع بياضِ المواضعِ الوضَّاءةِ في اللوحةِ؛ وكيف تمكَّنتُ بعمليَّةٍ عكسيَّةٍ من محوِ كلِّ ما فاضَ عن الشكلِ الأوَّلِ، ولفرطِ ما داعبتُ شكلَ امرأتي الخارجيَّ، أغرقتُهُ في هذه الألوانِ الوسيطةِ، وتخلَّيتُ عن الشكلِ، بعَدِّهِ امتداداً مصطنعاً، وأعدتُهُ إلى جوهرِهِ في الطبيعة نفسِها. اِقتَربْ منه، وسترى هذا العملَ بشكلٍ أفضلَ. إنّهُ يختفي إذا نظرتَ إليه من بعيد. هل ترى هذا؟ قال مُدوِّراً برأسِ فرشاتِهِ طبقةً لونيَّةً فاتحةً من لوحتِهِ، هنا سيبدو لكَ الأمرُ واضحاً جدّاً.

ربَّتَ بوربوس على كتفِ العجوزِ ملتفتاً إلى بوسان: - هل تعرفُ أنّني مازلتُ أراهُ رسَّاماً عظيماً؟ قال.

- إنّه ما يزالُ شاعراً أكثرَ من كونه رسَّاماً. أجابَ بوسان بصوتٍ أجشَّ.

- هذه هي، أردفَ بوربوس ممسِكاً باللّوحةِ، النقطةِ التي ينتهي فيها فنُّنا.

- ومن هذه النقطةِ، سيضيعُ في السّماواتِ العُلى. قال بوسان.

- إنّني أغبطُهُ على النّشوةِ التي رسمَ بها هذه اللوحةَ! هتف بوربوس.

لم يكنِ العجوزُ يسمعُ أيَّ شيء ممَّا يقولانه. كان غارقاً في تهويماتِهِ مبتسِماً إلى امرأتِهِ الخياليَّة.

- لكنّهُ سيُدركُ عاجلاً أم آجلاً، أنّهُ لا شيءَ في لوحتِهِ! صَرَخَ بوسان.

- لا شيءَ في لوحتي .. قال فرينهوفر موزِّعاً نَظَرَهُ بين الرَّسّامينْ واللّوحةِ.

- ماذا فعلتَ؟! صَرَخَ بوربوس في وجهِ بوسان.

انقضَّ العجوزُ على الشّابِّ، وأمسكَهُ بعنف من ذراعِهِ قائلاً: - ألا ترى شيئاً؟ يا لكَ من وغدٍ! حقيرٍ! تافه! مأبونٍ! لماذا صَعدْتَ إلى هنا، إذنْ؟ بوربوس! أردفَ ملتفِتاً إلى صديقِهِ، هل تسخرُ منّي أنتَ أيضاً؟

أَجِبْ! أنتَ صديقي. قلْها هيَّا. قلْ إنّني أفسدتُ لوحتي!

لم يجرؤْ بوربوس على قولِ شيءٍ، غير أنّ الغضبَ المرتسمَ على مُحيَّا العجوزِ الشّاحبِ كان قاسياً إلى درجةٍ، جعلتْه يشيرُ إلى اللّوحةِ قائلاً:

- انظرْ!

حَدَّقَ فرينهوفر في لوحتِهِ بُرْهَةً، فلم يستطع الحفاظَ على توازنِهِ.

- لا شيءَ! لا شيءَ بعدَ عشرِ سنواتٍ من العملِ!

جلسَ على الأرضِ، وبكى.

- لستُ سوى أحمق، لا يملكُ أيَّ موهبةٍ أو مقدرةٍ إبداعيَّة! لستُ سوى رجلٍ ثريٍّ مجنونٍ، يُفسِّرُ الماءَ بالماء. يا خيبةَ المسعى، إنّني لم أُبدِعْ شيئاً!

وبينما يتأمَّلُ لوحتَهُ بعينَيْنِ دامعتَيْنِ، وَقَفَ فجأةً، وأخذها بين يدَيْه بفخرٍ، ونظَرَ إلى الرَّسَّامَيْنِ بحقد:

- والأبُ والابنُ والرُّوحُ القُدُسُ لستُما سوى غيورَيْنِ، يريدان منّي أن أعتقدَ أنّني أفسدتُ لوحتي ليسرقاها! إنّي أراها! صَرَخَ، وهي رائعةٌ جدّاً!

في تلك اللحظةِ، انتبهَ بوسان إلى أنَّاتِ جيليت المَنسيَّة في الرُّكن.

- ما بكِ، يا ملاكي؟ سألها الرَّسَّامُ كما لو اكتشف أنّه يُحبُّها فجأة.

- اقتلني! قالت. اغرِسْ خنجرَكَ الملعونَ في صدري. لتحلَّ عليَّ اللّعنةُ، إنْ أحببتُكَ بعد الآن. إنّني أحتقرُكَ. لقد عشقتُكَ، فلم أرَ منكَ غير الرُّعب. ربَّما أحببتُكَ، لكنّني أكرهُكَ الآن.

بينما انشغلَ بوسان بالاستماع إلى جيليت، غطَّى فرينهوفر لوحتَهُ بغطاءٍ أخضرَ بهُدُوءِ جوهرجيٍّ، يُغلِقُ أدراجَهُ شاكّاً في أنّه برفقة بعضِ اللُّصُوص. ألقى على الرَّسَّامَيْنِ نظرةً ماكرةً مليئةً بالاحتقارِ والشّكِّ، وبحركةٍ متشنّجةٍ، رافقَهُما إلى بابِ ورشتِهِ في صمتٍ، ثمَّ إلى عتبةِ منزلِهِ، حيثُ قال: - وداعاً .. وداعاً، أيُّها الأصدقاءُ الأعزَّاء.

جمَّدتْ كلماتُهُ الرَّسَّامَيْنِ. في اليومِ الموالي عندما عادَ بوربوس قلقاً لزيارة فرينهوفر، علمَ أنّهُ ماتَ ليلتَها بعد أن أحرقَ جميعَ لوحاتِهِ.

باريس، فيفري 1832

---

(1) تروي المصادرُ التَّاريخيَّة أنّ مريمَ المصريَّة هي، في الأصلِ، قدّيسةٌ عاشت بين القرنَيْن الرَّابع والخامس الميلاديَّيْن في فلسطين، وقد تمَّ تناقلُ حكايتِها مشافهةً إلى حُدُود القرنِ السَّادس الميلاديِّ، ومفادُ هذه الحكايةِ أنّها عاشتْ سنوات طويلةً في صحراءِ كنعانَ، لتُكفِّرَ عن ذُنُوبِها، إلى أن قضتْ نحبَهَا هائمةً. غير أنّ

هذه القصَّةَ خضعتْ إلى تحويرات وإضافات كثيرة، ترسَّختْ في الاستعمالاتِ الدِّينيَّة والأدبيَّةِ اللَّاحقةِ، ومن أهمِّ هذه التَّحويراتِ أنَّها وُلِدَتْ في الإسكندريَّة أوَّلَ بدايةِ انتشارِ المسيحيَّة، وعندما بلغت الثانيةَ عشرةَ من عُمُرها عاشت في لُقصر أين مارست أنواعَ البغاءِ كلِّها. وذات يومٍ، وقد شارفتْ على مجاوَزةِ عامِها التَّاسع والعشرين، التقت بمجموعةٍ من الحجَّاج العازمين على الذَّهابِ إلى القُدْسِ في قاربٍ، فعرضتْ عليهم مرافقتَهم مقابلَ مفاتنِها. وبعدَ أن وصلتْ إلى القُدس، قرَّرتْ أن تقضيَ بقيَّة حياتِها في التَّعبُّدِ والتكفيرِ عن ذُنُوبِها. واللوحةُ التي يذكُرها بلزاك هنا هي رَسْمٌ لهذه القدِّيسةِ وهي تعرضُ مفاتنَها على الحجَّاج. (المترجم).

(2) في الأساطير اليونانيَّة، بروتيوس هو إلهُ البحر. يُسمِّيه هوميروس «رجل البحر القديم»، وهو معروفٌ بدلالتِهِ الرَّمزيَّة على التَّغيُّر المستمرِّ والتَّجدُّد والانفلات.

(3) عبارتان لاتينيَّتان كانتا تُكتبان أسفلَ اللَّوحاتِ في الفنِّ التَّشكيليِّ الكلاسيكيِّ، وتعنيان «العربة الساحرة» و«الإنسان الجميل».

(4) الجميلةُ المغناجُ: عنوانُ لوحة.

(5) مدينة في بلجيكا.


رواية
أونوريه دي
بلزاك
العمل الخالد
المجهول
ناظم بن إبراهيم